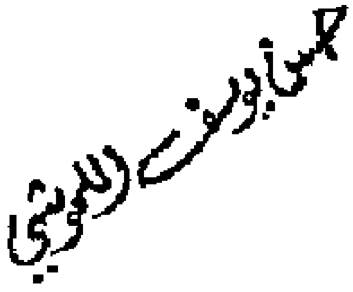
حجر الزهر

نصوص سردية



محمد الأصفر

مجلس الثقافة العام



حجر الزهر

تنويعة نصوص سردية

حجـر الـزهـر

تنويعة نصوص سردية

محمد الأصفَر

النـاشـر
مجلـس الثـقافـة العـام

اســـم الكـتاب	حجر الزهر – تنويعة نصوص سردية
اســم المؤلـف	محمد الأصفر
سـنـة النـشـــر	2006م
رقـــم الإيـــداع	6924 / 2006 م
الـترقـيم الدولـي	ISBN - 9959 - 38 - 074 - 2

تصميم الغـلاف	علي العباني
لـوحـــة الغـلاف	عادل جهان الفورتية
التنفـيذ الفـنـي	عاطف الأطرش – نجلاء المنقوش

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات – سرت

هاتف 002185468622 – بريد مصور 002185473161

فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 – بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية – الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 – 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني – LCC2_2005 @Yahoo.ca

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

تنفيـذ الطباعـة

القاهرة ت 0020123140315

الإهـــداء

إلى رياح القِبْلـي

يا عبد الجليل

العاشرة مساء .. رذاذ مطر خفيف .. دخلت المنتدى .. مكتظ كالعادة .. العادة واسعة .. الاتساع متكرر .. التكرار رتيب .. التلفازان يعرضان كرة القدم .. طاولة قريبة من الباب يجلس إليها الصديق عمران لامين .. يشاركه الجلسة صديقاه الرياضي أحمد المديني والفنان المسرحي سعد المغربي .. جلستُ معهم .. صافحتهم .. سعد يحكي عن مهرجان المسرح المغاربي المزمع إقامته في الفترة القادمة .. سعد قلق .. خائف أن يفترس المهرجان التأجيل .

غادر سعد .. بقينا نتفرج على مباراة برشلونة وريال مدريد .. لاعب برشلونة رونالدينهو يمتعنا بينما لاعب ريال مدريد رونالدو يغرقنا في البهيج .

عمران لامين رياضي قديم .. وصديق للفنان الشعبي عبد الجليل عبد القادر .. عاشا معاً مذ كانا صغاراً .. لعبا معاً في فريق الحرية .. في العشية يلعبان الكرة .. في الليل يسهران في مقهى

الفزاني بصحبة الأصدقاء .. مقهى الفزاني الآن بقال مواد غذائية يقابل سور مستشفى الجمهورية جهة الفندق البلدي .

بعد كل مباراة تنتظم في المقهى جلسات حميمة .. يحتدم النقاش حول مجريات اللعب .. الأصدقاء من كل الشرائح يعرضون أرائهم .. أغلبية المشاركين فنانون .. لاعبون .. عازفون .. مؤلفون .. عبدالجليل عبدالقادر .. الشيخ الفيتوري .. علي العماري .. عبدالله مجيحيد .. محمد العرق .. الشاوش .. أحمد عبدالحفيظ .. خليفة العرج .. وغيرهم .. أحياناً يأتي إلى المقهى صاحب عرس لدعوة عبد الجليل عبدالقادر .. يرفض عبد الجليل إحياء العرس والذهاب معه .. يقول له مشيراً بإصبعه : رفاقتي ..؟

يقول له صاحب العرس : مرحبتين بيهم معاك ..

يقول عبد الجليل : لا توجد سيارة .؟

يؤجر صاحب العرس سيارتين أو ثلاثاً يستقلونها جميعاً مبتهجين.

كانوا شباباً طيبين .. احتياجاتهم بسيطة .. في النهار يعملون في الجيش والميناء والإسكان والبلدية وغيرها .. في العشية يلعبون كرة القدم في ملعب المحيشي .. وفي الليل يغنون المرسكاوي في الأعراس أو على شاطئ المنقار أو عين زيّانة .

عبد الجليل يسكن في شارع كويري .. أحد شوارع بنغازي

العتيقة المتفرعة عن سوق الجريد .. أحياناً يختلف إلى حي الرويسات .. يقضي أياماً جميلة عند أمّه الحنون .. ثم يعود مجدداً إلى بيت أبيه وزوجته المصرية الطيبة .

معظم أوقاته يقضيها بصحبة أصدقائه في فريق الحرية .. يتنقلون من حي إلى حي .. ومن ملعب إلى ملعب .. لا يفترقون إلا آواخر الليل.

عبد الجليل يحب كل الناس .. وكل الناس تحب عبد الجليل .. كل من يخالطه يحبه .. إنسان متواضع .. عطوف .. حسّاس .. حنون .. طيب .. سريع الغضب .. سريع الرضا والصفح .. قلبه أبيض .. لا يُبقي فيه أي ذرة حقد .. الغضب والخصام والعصبية حالات مؤقتة .. تزول سريعاً كضباب .. التسامح شريعته .. الحب مبدأه الأصيل .. سريعاً ما يبتسم وينسى السيئات ..

عبد الجليل إنسان .. صاحب موقف ومروءة .. صاحب طرفة وقفشات .. كريم .. بل سخي جداً .. ما قفل بابه في وجه أحد .. ما رد أحداً خائباً أبداً .. حتى إن كان جيبه فارغاً اقترض للسائل .. مربوعته لا تفرغ من الضيوف .. دائماً يقول : اللي يعطي ربي يعطيه هو يعطي كل شيء .. الحب .. الصداقة .. المال .. الدم .. الطعام .. السجائر .. السيارة .

في السبعينيات لعب كرة القدم .. ترأس فريق الحرية ..

الكابتن عبد الجليل .. المطرب عبد الجليل .. كان يلعب بعصبية .. بقوة .. يلعب بجدية مفرطة .. اشتراكه في المباراة يستقطب جمهوراً غفيراً .. يأتي من كل أحياء بنغازي وضواحيها .. هو مدرب الفريق أيضاً .. أحياناً لا يشترك في المباراة ويدفع عوضاً عنه بوجه جديد موهوب إلى عالم الكرة الساحر.

كانت مباراة الحرية والتعاون هي مباراة الموسم .. الديربي الكبير .. فريق التعاون قوي جداً .. يضم نخبة من أمهر اللاعبين لكن فريق الحرية هو الأقوى .. هو فريق النجوم .. لم تنس ملاعب المحيشي أصحاب اللمسات السحرية ومبدعي الكرة السهلة المنفتحة .. لم تنس زمرة اللاعبين المهرة الذين يستنطقون الكرة ويجعلونها تغني .. أقدامهم تعزف الألحان على أوتار العشب اليانعة والكرة بينهم راقصة ملساء مجنونة، الملعب غير مسيج .. المتفرجين جالسون على أحجار تبعد متراً من خط التماس .. منهم من أجلس ابنه على رقبته .. رجلاه متدليتان تدقان بكعبيهما الصغيرين على صدره .. الطفل يطوق رقبة أبيه بذراعيه ويصيح : جليل .. جليل

.. ابد جليل .. ببّة يا بابا جليل.

كانت الكرة آنذاك بين قدمي عبد الجليل ومدافع عنيف أوقع به أرضاً .

الجماهير تصرخ لكل لمسة حلوة .. لا تسمع أي كلام بذئ أو

سباب للجلالة .. لا تسمع سوى الكلمات العفيفة المشجعة .. عندما يُضيع المهاجم فرصة هدف : معلش .. ياما راح .. يأخذ سوّك .

وعندما ينقذ حارس المرمى عرينه من تسديدة محكمة في الزاوية: عظيم .. أحسن يا رشيق .. يا فدائي .. وعندما يستقبل لاعب الوسط الكرة بصدره أو يمررها بالكعب: أيوا يا لاعيب .. يا فنان .. يا بليه ..

في الملعب الكرة تغني .. التمريرات جمل موسيقية .. مراوغة المهاجمين دق طبل على جلود الطين .. هدف الرأس شكشكة بندير مبهجة .. واهتزاز الشباك سكر الأناشيد .. أما الفرص المهدرة فهي قمامة .. قمامة كروية وأجنّة مجهضة راحلة بآهات الحسرة .

لكل فريق أناشيده وأغانيه .. في الانتصار غناء مفرح .. في الخسارة غناء حزين .. وعقب نهاية المباراة يتعانق الجميع كأسرة واحدة في يوم عيد ..

يتحممون .. يتعطرون .. يجلسون في مقهى الفزاني جهة الفندق البلدي .. يحتسون الشاي ويتجرعون عصير البرتقال المنعش .. ويتحاورون مستعرضين ما قدّموه من إبداع أثناء المباراة تسمع وجهات النظر والتعليقات والتعقيبات ونقاط النظام التلقائية .. تسمع أيضاً طروحا فنية للمدربين .. لقاء في مقهى لكنه ندوة رياضية متكاملة .. حوار واع موضوعي .. وفي نهاية الجلسة يغادر كل فرد إلى مبتغاه .. راضي النفس .. مفعم الروح بالمرح والحياة ..

في التسعينيات ولج عبد الجليل مجال التدريب في النوادي .. فدرّب أشبال فريق السواعد .. جمعهم من المدارس والحارات والشوارع .. حل مشاكلهم .. من كان عاطلاً ألحقه بعمل شريف .. من يدرس ساعده مادياً ومعنوياً .. من هو جندي زاره في الثكنة وأوصى عليه الضباط .. ومن لديه أي مشكلة عالقة مع جهة ما تدخّل فيها وساهم في حلها .

عبد الجليل شخصية محبوبة في البلاد .. لا أبواب تقفل أمامه.. هو لا يطلب الخدمة لنفسه .. لكن يطلبها للآخرين المحتاجين كل المسؤولين يحترمونه ويقدرون روحه الإنسانية وفنه الأصيل .. كلمته مسموعة في البلاد .. في المدينة الرياضية يعمل مديراً للملعب كرة القدم .. يشذب العشب ويرتق الشباك .. هو المسؤول عن الملعب .. المفتاح في عنقه .. لا ينام إن كان هناك خللاً يمنع قيام المباريات .. ينظف غرف الرياضيين والحكام .. يستبدل المصابيح العاطلة بصالحة .. يصيّن صنابير المياه .. يفعل ذلك صحبة فريق الصيانة النشطاء .. والذين يخجلون عندما يرون عبد الجليل يبادر في العمل الذي يكلفهم به .. فيدبُ النشاط فيهم ويستجدونه أن يستريح .. تريّح يا أستاذ .. والله ما صارت .. ويمسح أحدهم كرسياً ليجلس .. لكن عبد الجليل لا يجلس .. يظل واقفاً يراقب سير العمل و يتابع التفاصيل .. يناول هذا مقشة .. والآخر مكشطة مطاط .. والآخر زرّادية أو بعض الصواميل ليس الإشراف العام على الملعب هو كل عمل عبد

الجليل .. فهو أيضاً عامل تهدئة مهم للجماهير الغاضبة الثائرة .. خاصة أثناء المباريات الحساسة حيث تنشب المشاجرات وتحتد الاعتراضات على قرارات الحكم .

كثيراً ما تدخل عبد الجليل ورفع يده للجماهير طالباً منها أن تجلس وتهدأ وتتوقف عن قذف الحجارة وقنن الماء إلى داخل الملعب .

الجماهير تعرف عبد الجليل جيداً .. لا تستحمل أن تراه حزيناً مكتئباً .. أو تراه مقطباً مكشراً .

عندما يغضب عبد الجليل يكسوه الحزن الكبير .. لو كنت إنساناً حقيقياً لن تحتمل هذا الحزن الكبير .. حتماً ستتوقف عن العبث .. حتماً ستخجل وتهدأ .. سينسيك هذا الحزن العظيم الذي أنت سببه عصبيتك وعربدتك .. الفنان عبد الجليل عندما يغضب يوقف الموسيقى في الدم .. ما عاد ينساب عبر الدم سوى البكاء .. يشعر الفوضوي أو المشاغب برحيل شيء ما من نفسه ..

يسعى بأي طريقة أن يستعيده .. يتوقف عن رمي الحجارة .. وعن السباب ويفتش ببصيرته داخل الملعب .. ليجد عبد الجليل قرب السياج رافعاً يده .. ناظراً بأسى وعتاب للجماهير الغاضبة .. يتحوّل غضب الجماهير إلى تصفيق صاخب خاصة عندما يصفق لهم عبد الجليل شاكراً استجابتهم ومثمناً روحهم الرياضية العالية ورقيهم الحضاري .

في مباريات الفريق الوطني يطلب من الجماهير أن تشجع

أكثر وتحب أكثر وتغني أكثر .. يحمسهم .. يهتف معهم .. وإن سجل فريقنا الليبي هدفاً تجد عبد الجليل وسط اللاعبين يعانقهم ويذوب في رحيق فرحتهم اللذيذة .

عبد الجليل إنسان طيب .. درّب أشبال السواعد .. هو على دراية بعلم التدريب ..لم يدرسه في المدارس .. التقطه من ملاعب التراب والطين و الكاولينة .. استشفه من محاورة المدربين واللاعبين الدوليين .. هو ليس غريباً عن كرة القدم .. لعبها وتفنن فيها .. تابعها عن كثب..منحها ماله وجهده وأعصابه .. كل أندية بنغازي تعرفه .. وأكثر اللاعبين الموهوبين أصدقاؤه .. ونيس خير.. فوزي العيساوي .. طه الساحلي .. على البشاري .. بن صويد .. الحشاني.. بيزان .. وغيرهم .

شعبية عبد الجليل ليست في بنغازي فقط .. فهو شعِيب أو مشعوب حتى في طرابلس .. كثيراً ما ذهب إلى طرابلس وأحيا أفراحا لأصدقاء هناك .. هو لا يقبض مالا عن غنائه .. فله عمله في ميناء بنغازي البحري وله عائدات بيع أشرطته .. العرس يدخله دائماً من باب الصداقة والفرح والإنسانية .. هو متواضع متواضع جداً .. متواضع مع الجميع .. حتى الفنانين الصاعدين يقبل بصدر رحب أن يغنوا معه في نفس الحفلة بل في نفس الوصلة بيت ببيت .. في فترة السبعينيات أذكر عرس الصديق فرج الدوبادي بحي المحيشي .. أحيّا أحدى لياليه الفنان عبد الجليل وشاركه الغناء الفنان الصاعد آنذاك سيف النصر.. عبد الجليل غنى أولاً :

ليش البكاء يا لعين يا مهبولة .. كنك على الغالي ايجيبه المولى.

ولحقه سيف النصر بأغنية:

ليش البكاء يالعين وليش الحيرة .. واللي جفا انسيه ديري غيره

وكانت حفلة لطيفة مزدحمة بالناس والفرح .. الغناء في صالة ضيقة ستة أمتار مربعة في بيت شعبي من بيوت حي المحيشي .. والحضور كثيف .. لا موطأ لقدم .. والأجواء مبهجة بهيجة .. المطربان يغنيان والحضور يستمتع بينما الزغاريد في خيمة النساء المجاورة تتعالى ولا تتوقف .

عندما درّب عبد الجليل فريق أشبال السواعد أخذ الفريق في رحلة رياضية إلى مدينة طرابلس .. كان الفريق محل حفاوة من الطرابلسيين .. لعب عدّة مباريات جدية .. كان عبد الجليل وفريقه محط تكريم وتشريف من نادي الاتحاد صاحب الشعار الأحمر والحليف الاستراتيجي لنادي الأهلي البنغازي النادي المحبوب والمفضل لعبد الجليل .

المأوى والطعام ومصروف الجيب للرياضيين على نفقة نادي الاتحاد .. ورأى الأشبال الصغار كيف تصنع الرياضة الحب .. وكيف يصنع الفن الأصيل عشقا عميقاً لا ينتهي ..

عبد الجليل لا يدرب الفريق كثيراً .. لعب خمسين مباراة بعشرين تمرين فقط !!..بعد كل مباراة يعطي ملاحظات عامة عن

أداء كل لاعب .. وقبل المباراة يلقي محاضرة قصيرة .. يقول للاعبين غنّوا .. غنّوا .. الكرة حنجرتكم وأقدامكم عبير الهواء .. كل لاعب حر في الملعب .. لن أقيدكم بشيء .. يهمني الفن .. ارتطام الكرة بالعارضة أو القائم أحلى عندي من اهتزاز الشباك بهدف قبيح نتج عن دربكة أو لعبة حظ .. يهمني بالأساس الفن .. الموسيقى .. الغناء .. رقص الكرة بين الأقدام .. فريقه الصغير كفريق البرازيل كفريق هولندا .. كفريق تشيكيا أو البرتغال .. تمريرات ذكية ذات عمق ومعنى .. لعب هادئ سريع طموح جموح .. هم يلعبون ولا يؤدون مباراة .. عبد الجليل يبتسم .. لا يصرخ.. لا يشتم أو يتنرفز.. يترك الصغير يبدع .. يفجّر موهبته .. يقول له : أنت تحلم في الفراش .. أنت تلعب في الشارع مع أقرانك الصغار لست مطالباً بشيء .. لا نريد الكأس.. لا نريد البطولة نريد الفن .. نريد روح اللحن .. الحياة .. يقول لهم أثناء المباريات التي تُجرى في قيظ رمضان.. الجو ساخن يا شباب .. حمو .. لا تجروا وراء الكرة .. اتركوها هي التي تجري .. أي مرروها ولا تحتفظوا بها أو تركضوا وراءها .

تحصل بهذا الفريق الفني الفتي على البطولة .. وككل الفنانين في الدنيا .. لابد من الإصابة بالملل حتى من توالي الانتصارات .. فذات يوم بارد جداً .. كان عبد الجليل في منتصف الملعب .. الصافرة في يده .. وحزمة الغلالات الملونة تحت إبطه .. يدرب الفريق بجدية .. يأمر اللاعبين بالركض وعدم التوقف وقاية من

البرد .. لكن الشيء المحيّر لعبد الجليل أن كل خمس دقائق يستأذن أحد اللاعبين .. يقول غداً لدي امتحان مهم .. يسمح له عبد الجليل بالمغادرة ويعلمه بزمن التدريب القادم .. بعد انتهاء الحصة التدريبية تفاجأ عبد الجليل إذ وجد اللاعبين المستأذنين يلعبون البلياردو في صالة النادي الدافئة .. غضب عبد الجليل .. تمتم: وكأنك تشخ في الرمل.

ثم غادر النادي في صمت .

إنه الملل .. ليست هذه أول مشكلة واجهت عبد الجليل لكنه الملل الملل الممل .. لا يريد أن يبقى .. فوجد السبب .. خرج من النادي حزيناً .. لم يتبعه أحد .. لم يستجده أحد للعودة .. الكل يعرف عبد الجليل .. لا يحب أن يتراجع عن قرار اتخذه .. لا يحب أن يفعل شيئاً دون حب ورغبة .. خلاص .. العيش والملح خف .. لقد خانه هؤلاء الأوغاد الصغار الذين صنعهم ولملم ضياعهم من شوارع حي المحيشي المتربة .. لقد خانه هؤلاء الصغار كما خان يهوذا المسيح .

لكن تبقى الذكريات .. تبقى الحياة التي رسمناها على ضباب الزفير وعلقناها على زمن نظنه ضاع .. يبقى النسيم الذي لم يذبْ في كثافة النسيان .. في إحدى الأعراس بحي المحيشي كان عبد الجليل يغني ويجانبه مساعده في الإشراف على الفريق جبريل المعداني (بليشة).. جبريل أيضاً إنسان طيب كريم منح الكثير من وقته للأصدقاء وللرياضة وللفن وللمروءة.. وكان عدد من أشباله الرياضيين حاضرين العرس : حميد الياباني .. بالعيد عويطه .. عادل

نحـول.. إسماعيل الرجبانـي .. خالد بريش .. مفتاح البشتـي .. خميس وحفـيظ وسـليم الـتاجوري .. علـي رجـب .. خـالد خلـيفة .. رمضـان الـنائلي .. فـتحي الـنائلي (القـندوز) .. علـي مـيلاد .. عبدالسـلام العبـيدي .. سـيف النصـر.. حمـيده الحـاج (حـارس المـرمى) مـرعي الشعلالي (سـاطاش).. صالح بالعيد .. وحتى الرياضي الخلوق محمد عـبدالله الـذي اخـتفى فيما بعـد في ظـروف غـامضـة كـان قـد اسـتأذن للصلاة في الجامع القريب والعودة .

كان عبد الجليل يغنـــي في قمة تسلطنه وطربه :

ألفـين مـبروك يـا عريسـنـا .. ألفـــــين مـــــــبروك

ألفـــــين مـــــــبروك وفي فـــرحك جيـنـا انهـــنوك

ألفـين مـــبروك يـــا عريســنـا ألفـــــين مــــــبرووووك

وفي نهاية الوصلة قاد أحد الأشبال الغيطة الصاخبة المرحة :

أمتـا إيجي ولد هالشقراء

واندزا للروضة يقرا

وسلم خوتـا اللي صبـولا

تـصبـايت عسكر في الدولة

وانتهـت الوصـلة ووضـع العــازفون آلاتهـم جانـبهم، أشـعلوا

السجائر وقدمت لهم كؤوس الشاي وفناجين القهوة .. وخرج اللاعبان صالح بالعيد ومرعي ساطاش ليجدا عبد الجليل منزويا في المنور وحيداً يدمع .. سألاه : شنو فيه ؟! .. من زعلك يا أستاذ ؟!

ومد له صالح منديلاً ..

ازداد نشيج عبد الجليل وعبرته انفجرت في عويل حاد .. تركوه يأخذ غايته في البكاء حتى انتهى لم يتركهما يسألاه وأجابهم :

عريس الليلة غنيت في عرس والده !

معلوم أن عبد الجليل تزوج مرتين ولم يرزق أطفالاً .. هذه الأمور وكما نعلم من عند الله .. يرزق من يشاء الذكور .. ويرزق من يشاء الإناث .. ويجعل من يشاء عقيماً .. وعبد الجليل بالمعنى العميق ليس عقيماً .. فكل الصغار أبناؤه .. فهو أب لكل الإنسانية .. وأب لقيم الخير والمحبة .. وأب للحياة برمتها .. أب حنون .. صادق .. رحيم.. باتوس مؤسس قوريني يبكي لمرض أي من رعيته وعبد الجليل يصرخ إذا مسّت شوكة إصبع صديق .

الآن عبد الجليل على كرسي مقعدين لكنه يمشي .. يجري .. يلوح بيديه .. بروحه .. بقلبه .. نفسه تسبح في أجواء بنغازي ووجدانه ينساب مع أنسام ليبيا .. وأحلامه تتنامى وتتداخل تصافح التاريخ .. بالأمس القريب كانت مباراة الأهلي بنغازي صاحب الشعبية الهائلة والذي يشجعه عبد الجليل مذ كان صبياً و فريق السواعد الذي يحبه

عبد الجليل أيضاً والذي درّب له أشباله وعاش بين ربوعه ونواحيه زمناً طويلاً أنتج له أصدقاء وأصهاراً وحياة .

دخل الفريقان أرض الملعب .. وهتف جمهور الأهلي الغفير .. التقط الفريقان الصور التذكارية وأجريت القرعة وتوزع اللاعبون على أرض الملعب والحكم رفع الصافرة إلى فمه لينفخ بداية المباراة وفجأة انفجرت ضجة وصفير وصراخ ومفرقعات احتفالية غطت السماء .. ظن الحكم أن أحد الشخصيات الاعتبارية وصلت أرض الملعب فأرجأ إطلاق الصغير ليرى هل من تعليمات .. لكن لا شخصية رسمية ولا اعتبارية وصلت .. عبد الجليل عبد القادر شرّف وصل .. دخل الملعب على كرسيه المتحرك .. يدفعه صديقه الطيب الوفي مرعي العنزة وتحفه الغزالة من اليمين وموريـنا من اليسار .. الكل رحب بعبد الجليل وصفق لحضوره .. الحكم ومساعداه .. اللاعبون والبدلاء .. المدربان .. المصورون والمعلقون والصحفيون .. أطفال جلب الكرات الطائشة .. عناصر الشرطة الواقفة حول الملعب .. حتى سيارات النجدة والمطافئ والإسعاف أطلقت صافراتها وأضاءت أنوارها مرحبة به .

بكى عبد الجليل .. تأثر في الصميم .. لم يحتمل هذا الوفاء .. وهذا الحب النبيل .. ربّت على عنق الغزالة ومسّح على رأس مريم براحته ثم نظر إلى أعلى حيث أعمدة النور العملاقة التي بدأت تضئ الواحدة تلو الأخرى.

ذيل العصفورة

لا أستطيع أنْ أرى أمي .. صهري قبض عليه منذ أيام .. وجاء البوليس لتفتيش بيتها والذي أقيم في شقة فوقه .. اقتحموها .. سألوا عني .. أجابهم الغبار : إنه لا يقيم هنا .. منذ شهور ترك الشقة ليقيم في غرفة ضيقة ببيت شباب شحات .

التقيت بقريب لي .. أخبرني أنهم يبحثون عني .. ومكعب البيت مرصود من جميع الجهات .. قلت له : لكن أريد رؤية أمي .. منذ شهور لم أرها .. أشتاقها بشدة .. في شحات أحلم بها دائما .. قال لي : أرجوك أنْ تختفي هذه المدة .

وكيف لي أنْ أختفي وأنا الآن في بنغازي ؟! .. أذرع شوارعها.. اتسكع في باحات سوق الحشيش والفندق البلدي وسيدي حسين .. زرت مبنى البريد ومقهى تيكا وشربت الشاي في مكتبة الفضيل بوعمر مع صاحبها الحاج حسن .. شاهدت مباراة البرتغال وأسبانيا في مقهى لبدة المقابل للحرس البلدي وصرخت مع هدف الفوز..

دخلت أمانة الإعلام والثقافة .. مررت من أمام الإذاعة ومحكمة الشعب والمثابة .. لم يقبض عليّ .. مررت أيضا من أمام مبنى البحث الجنائي ولم يحدث شيء .. لم أرَ أي عنصر بوليس ركّز بصره في وجهي.. أعتقد أنّ حبيبتي بنغازي تُلْبِسُني قبعة الإخفاء .. وترشرشني بملح كركورة المبارك وتغني لي :

" يا محني ذيل العصفورة .... عليك ملايح كركورة "

عندما أخبرني قريبي – وهو في الحقيقة ابني الصغير أيوب !– لم أرتجف .. ولم تتصاعد من فنجان قلبي أي دقات مضطربة .. ولم أهرع إلى أقرب بيت خلاء .. بل لم أشعر بذرة ضيق أو قلق .. عندما أخبرني بكلمات واجفة طمأنته بابتسامة وربتُّ على كتفه وأتممت معه شغلي .. ركبنا حافلة من حي المحيشي حيث أقيم ويبحثون عني إلى الفندق البلدي .. كان ابني يروي لي في الحافلة قصة تفتيش بيت جدّته وشقتي .. كنت أنبهه بنظرة تحذير وعضّة شفاه سفلية أنْ يخفض صوته وينتبه .. ونزلنا قبل المحطة الأخيرة تضليلا لآذان بصاصي الحافلة .. ذهبنا جنوبا إلى سوق الحديقة .. اشتريت له التلفاز الصغير الذي وعدته به منذ شهور ومعه مجموعة أقراص CD عليها مغامرات سندباد ورسوم متحركة ثم اكتريت له سيارة أجرة وشيّعته بنظرة ود .

قال لي : اختفِ يا أبي .. حِلْ .. عُدْ إلى غرفتك في شحات ولا تأتِ إلى البيت في بنغازي .. لا تنشغل علينا .. سنتدبر أمورنا .. معنا

الله .. اختفِ يا أبي .. حِلْ بسرعة .. الآن .. لقد أتوا إلينا بعد التفتيش عدة مرات .. وكل صباح وأنا أحضر الخبز من الفرن أجد سيارتهم رابضة في بداية شارعنا .. أعرف أنك بريء .. جدتي قالت لنا : أبوكم مش داير شيء .. كذلك قال الجيران .. لكن أرجوك .. حِلْ.. ابتعد .. ابتعد من هنا .. وغادرتْ به سيارة الأجرة وأنا واقف مكاني ألوّح لالتفاتة الصغير الوديعة..

وماذا أفعل الآن ؟ .. صدقوني لم أشعر بالخوف .. يحدث معي هذا دائما .. منذ عقدين وهذه حالتي .. قلق أبدي .. رحيل دائم .. بيت ملعون لم أنعم فيه بالهناء يوما واحدا .. حتى ليالي عرسي امتلأت بالكوابيس .. حقا لم أشعر الآن بالخوف .. ولم تنتابني حُمّى الارتجاف .. ولم أهرع إلى أي مرحاض .. فقط ضرطت بقوة .. وواصلت مسيري شمالا إلى سوق الفندق البلدي .. خضت في الزحام .. أتمتع بألوان الخضر والفاكهة والتمور والبقول والمحمصات .. أتشمم رائحة البهار والنعناع والكسبر والبطيخ .. استمع لصياح الباعة : معدنوس .. جرجير .. طماطم .. فلفل .. فجل .. بصل .. ثوم .. لفت .. كرنب .. خيار .. بطاطس .. جزر .. كوسة .. باميا .. دلاع .. بطيخ .. خوخ .. باذنجان أسود وأبيض وأشهب .. فقوص .. الخ ..

وعند باب الخروج لا أتمالك نفسي وأتقرفص أمام عجوز تبيع الوشق والجاوي والفاسوخ والحلتيت .. كانت أمي دائما تشتري منها مستلزماتها العطرية .. أسألها عن أمي وتخنقني العبرة وتنثر الدموع

فتناولـني مـنديلا أخرجتْه دافئا مـن ردنهـا .. رائحـته مسك وعنـبر وقـرنفل وريحـان ومحلـب .. كفكفت به وخرجت من السوق .. اتجهت غربا متجاوزا حديقة ضريح عمر المختار المهدّم .. وفي منتصف طريق عمـرو بـن العـاص توقفـت عـند حلوانــي بوعشـرين .. اشـتريت مـنه طربوش جيلاتـي بالمكسرات أبرّد بـه صهد عمري وواصلت صعودي في الـدرب العتـيق .. الدكـاكين يميـنـي .. قنصلية الطلـيان يسـاري .. بلاط الرصيف متخلخل تحتـي .. والسماء صافية فوقـي .. و لسانـي يـلحس حـلاوة الجـيلاتـي ويغـنـي .. ورأسـي تفكـر كـيف تتسـلل إلى حضـن أمـي .. وعند نهاية ابـن العـاص نضب الجيلاتـي مـن طـربوش البسكويت فرميته فورا جنب شجرة الميدان المجتثة وانعطفت بشدة يسـارا حيـث شـارع الزعـيم الخـالد جمـال عبدالناصـر المتجه صـوب الجنوب فقط .

طرابيش التشاعر

- 1 -

في ظهيرة يوم قائظ خرجت من البيت، ركبت الحافلة، ونزلت في ميدان الفندق البلدي. على الرصيف بائع يبيع الكتب .. يضع على كل كتاب حجرا صغيرا .. لمحت كتيباً ليس بغريب علي .. أزحت عن صدره الحجر.. إنه هو.. وإن صديقي الشاعر.. بعد مساومات ساخنة اشتريته أو بالأحرى أزحت عنه ثقله بدينار إلا ربع. .!

- 2 -

عدت إلى البيت، وضعت الديوان في المكتبة، جنب ديوان " الذي يأتي ولا يأتي" للبياتي .. دفعه ليسقط أرضاً وأقسم أنْ لا يبيت بجانبه.. وضعته بجانب الشاعر الفزاني .. مرض الفزاني وسافر ليلقى حتفه في سويسرا. وضعته بجانب أمل دنقل دفعه مع عضّة شفاه .. قرب إيليا أبو ماضي. . أبعده برفق هامسا : لقد تركنا لكم الوطن أتلاحقوننا في موتنا أيضاً؟

- 3 -

أخذ الديوان يبكي ويرفس بأوراقه وغلافه على الأرض .. تركته يبكي حتى اليوم التالي .. لم ينزح اللعين.. في منتصف النهار خرجت لأعيده إلى الرصيف متنازلاً عن ثمنه، ولكن بائع الرصيف غير موجود.. دوهم من قبل الحرس البلدي.. قلت سآخذ الديوان في نزهة على الأقل .. فأنا لا أحب الكلمات الباكية.. البحر لفظه.. الحدائق فظته.. سوق الحوت .. سوق الحشيش .. سوق الحمام .. المواشي .. هرعت به لدار الكتب الوطنية ألفيتها مقفلة قال لي الخفير قبل حضورك بدقائق أقفلوا فجأة وخرجوا مسرعين مستقلين أول حافلة .. قلنا نأخذه إلى رابطة الأدباء وجدتهم في اجتماع بطرابلس .. ماذا أفعل به يا تُرى .. آه فكرة .. !! ذهبت به إلى سوق العرب دخلت من باب البقوليات والمحمصات.. فور دخولي أخذت حبيبات "الزريعة" ترقص في الأكياس وتتطاير إلى أعلى كذرة تُقلى.

تعجبت للأمر. سألت السوداني قيّم المحمصة : ما الأمر؟

قال لي: كلما دخل زبون في يده ديوان مثل الذي تحمل تفرح الزريعة إلى حد الطرب لأنها ستتحصل على قراطيس تحررها من أكياسها.

قلت له: ريحتني الله يريّحك ..

ودفعتُ له بالديوان.

- 5 -

طربشه سريعاً وملأ الطرابيش بالزريعة "الساميسنه" وصاح في مساعده: بسرعة إلى المدرسة .. قريب يدق الجرس.. اندفع المساعد يجري بصندوق الطرابيش .. تبعته بفضول.. حالما وصل أمام المدرسة ازدحم عليه التلاميذ واشتروا كل قراطيس الديوان، رغم وجود بائعين آخرين يبيعون الزريعة نفسها ولكن في قراطيس ورق إملاء وحساب ورسم بياني .

تتبعت تلميذاً.. انتحيت به جانبا وسألته: لماذا تشترون هذه القراطيس بالذات؟!!!

قال لي: هذه القراطيس يا أستاذ عندما ننقب زريعتها نصنع منها صاروخا نطلقه فلا يخطئ الهدف أبداً.

قلت له: أي هدف تعني يا صغير؟

قال لي: سلة المهملات التي وراء باب الفصل!!.

المربوعة

كلما التقيته حرص على أنْ يضيّفني في مربوعتهم العتيقة ذات البلاط الأبيض والقرمزي الشبيه برقعة شطرنج .. والتي قبل تحويرها إلى مربوعة كانت مقهى شعبياً من رواده بعض فتية بنغازي المهمومين بالثقافة والأدب كصادق النيهوم ورشاد الهوني وحسين مخلوف وخليفة الفاخري ..

كان ذلك خلال حقبة الخمسينيات والستينيات عندما كان ميدان سوق الحشيش حاضرة برقة ومركزها التجاري العامر يوميا بالباعة والشُراة القادمين من نواحي سلوق وقمينس والأبيار والرجمة وحتى من الجبل الأخضر وفزان وأوجلة.. جالبين منتجاتهم من عسل وحبوب وبقول وأصواف وتمور .. وغيرها ..

كان مقهى سي عمر يقدّم القهوة والشاي والمشروبات الغازية.. وفي فصل الشتاء يضيف سحلب القصب الساخن المرشوش بالقرفة والحرارات ومبشور جوز الهند .. بعد أنْ نتناشد ونجمع ما في جيوبنا..

يخرج لفترةٍ قصيرة ويعود بكيس صغير نافخه الماء .. يثقب طرفه بعضّة ليصبّه داخل القنينة الفارغة .. نبتسم .. وتدور الكؤوس بيننا .. تصحبها ملاعق زبادي غوط السلطان وحبيبات الزيتون المالحة ..

في قطيرات الخمر تتجرأ المحاكي ..

والأحاسيس الظامئة تُزْهرُ الانتعاش ..

والهم والغم مذبوحان في رقصة مرحة ..

والأحذية الدائسة مأزق وجودنا تسكر .. تترنح ..

تنحلّ عُقد خيوطها لتنثني أبوازها إلى تحت ..

والفناء المرئي يرحل بعيدا عنّا ..

وإن عاد فببطء ..

حتى نكاد لا نحس دخوله ..

أي بقاء فان يرانا ولا نراه ..!!

بعد خمسة أدوار يضيء الجو .. والمزاج يرتقي سلالم الابتهاج .. والتجلي يشير إلى الدرج القريب .. يجلب منه أوراقه وأقلامه ويغوص متنفسا في عميق عوالمه .

نجيب مخلوف .. من مواليد سوق الحشيش بداية الخمسينيات .. متوسط القامة .. هادئ الطباع والملامح .. مخدد

الجبهة .. شعره جيّره الزمان .. عيناه محمرتان .. أغلب الآحايين تخالهما تذرفان .. على جبينه مسحة حنين .. وفي رأسه ذاكرة ضجيجة بالأحاديث والحوادث .. أمكنة .. شخوص .. أزمنة مفرحة ومحزنة .. ينشر حكاياته في جريدة أخبار بنغازي .. تناول العديد من الشخصيات الليبية والعربية .. علي بازامة فنان الكاركوز.. الدرويش بوسعدية .. أحمد بن بللة .. جميلة بوحيدر.. جميلة بوعزّة .. بطل الملاكمة جقرم .. صاحب المطعم قريتشة .. وكثير.. كثير..

مختصر يومه كمختصر ماضيه .. لا جديد تحت الشمس ولا قديم فوق السماء .. يخرج ويعود .. يستيقظ وينام .. بندول رتيب يعيشه .. يجلس على مصطبة بيتهم .. خلفه حوض لاونطا .. تظلله عريشة لبلاب .. أمامه مخلوقات تمر.. ينظر يمينه .. يستحضر الكرمة .. كرمة عائلة مخلوف .. هي مجتثة الآن .. خيالها باق .. ظلها المفترض .. رائحتها .. يقعي حيث كانت .. يحفن من التراب .. يشمّه ويعيده برفق .. لا ينفض راحته .. لا يمسحها بمنديل .. يمسح بها على جبهته ويهمس لذاته :

- لماذا عمر الكروم قصير ؟! ..

يقطع ميدان سوق الحشيش .. القصير طوله وعرضه .. تقوده قدماه إلى شارع سيدي أحمد الشريف .. يتبوأ منتصفه .. ظهره لأطلال ضريح عمر المختار.. ووجهه لمنارة سيدي خريبيش .. لا يعبأ لأبواق السيارات ..

ما أجمل الغروب ..

الغروب هروب ..

والشروق هبوب لرياح النور..

الشمس تغوص ..

المنارة تومض ..

والنجوم تضيء ليل برنيق ..

ليل الملح المضيء ..

الليل الشفيف الذي لا يبتلعنا ..

ذات يوم لم نجمع ما في جيوبنا .. كان حزينا .. صامتا .. يدخن بشراهة .. سيجارة يشعلها من فم أختها .. ظللنا جالسين على المصطبة .. الظل يتأخر .. وآذان الظهر يرتفع من جامع سيدي محمد الفقي .. دخلنا المربوعة .. قدّمت لنا أخته مكرونة جارية حارة .. وأعقبتها بدورين شاي مكشكش .. نجيب مازال في غيّه صامتا .. لم أتجرأ على اقتحام عزلته.. من حق الإنسان أنْ يسكر صمتا .. تجرّعت مثله زجاجة صمت .. غرقت في قراءة (أنْ تعيش لتحكي) لجابريل جارسيا ماركيز.. بينما هو غارق في سُحب سجائره .. الصمت ليس عزلة .. يحاورني بعينيه .. بهزهزة رأس خفيفة .. بدمعتين حرّتين .. بطول وقصر سَحبه لسيجارته .. بطريقة نفثه .. بكيفية سحقه

للأعقاب .. السيجارة حياة .. والحياة سيجارة .. والجمرة هي الروح .. وأعواد الثقاب قدحة قدر بائسة ..

كانت حالته غير مستقرة .. صخب .. هدوء .. أحاسيس متشابكة .. ربما تلسعه سياط ذكريات أليمة .. ألم يختبئ في طيّات نسيان.. يتحيّن فرصته ليطفو.. لا يريد أنْ يموت دائما .. من حق الألم أنْ ينجو.. أنْ يعيش حياته .. أنْ ينتصر على حقن التخدير وشرائط المسكنات ..

الإنسان لا يجترّ من ماضيه غير الحزن ..

وإنْ اجترّ الفرح ففرح الحاضر أكبر أناني ..

وفرح المستقبل أقتم أنانية ..

مسكين تاريخ مشاعرنا .. مسكين !!

انتابتني نوبة سعال بسبب الدخان .. أسعفني نجيب بفتح النافذة المطلّة على سوق الحشيش .. ناداني بفرح طفولي .. تعال .. تعال .. جئته مسرعا أشاركه التأمل الشبّاكي .. كانت قادمة .. هريرة ناضجة متباطئة .. قصيرة مكتنزة .. ترتدي إزارًا سماويا وسترة فضفاضة تميل للون البنفسجي .. يفصلهما حزام من قماش وردي .. تتهادى مقتربة وشعرها منسدل في سالفين على صدرها .. تصلنا فرقعات صندلها على الأسفلت .. تك .. تك .. تك .. وشوشني : إنها سعاد .. اسعودتي .

هممت أنْ أخرج .. فسعاد على وشك الوصول .. لكنه أمسك بيدى بشدة

- والله ما تنكتب علينا .. النيهوم والفاخري ما علمونش استبدال الأصدقاء بالصديقات ..

- لا يمكنني البقاء .. أشعر بالخجل إنْ حشرت نفسي بين عاشقين !

- باهي .. باهي .. ساهل .. ساهل ..

رن جرس البيت فوارانى وراء باب المربوعة ..

سعاد ونجيب جالسان في صمت صاخب .. أمامهما العصير والكعك والغريْبَة والمقروض ..

كان قد استنفد سجائره فاستأذن سعاد وجاءني خلف الباب .. سحب من جيبي علبة السجائر تاركا مكانها كعكة وقطعة مقروض ..

ومع أولى نفثاته الجديدة ساد المربوعة مناخ رومانسي يتواطأ مع الأيروسية .. حديث هامس .. آهات مسروقة من صمت محروس .. ضحكات مكبوتة .. محاورة بصر وبصيرة .. جسد وروح .. عصافير .. فراشات .. شموع تتذاوب .. ورود تنبت في الجدران .. البلاط القرمزي ورّد البلاط الأبيض.. اللونان يتداخلان .. يلهثان في امتزاج ألوان

الطيف .. رقعة الشطرنج تورمت .. السقف دار ..هدد بتسريب ماء المطر .. أخيرا استأذنت سعاد للذهاب .. صحبها نجيب إلى شارع عمرو بن العاص عبر شارع عثمان ابحيح .. عند حلواني بوعشرين أوقف لها سيارة أجرة .. ولوّح لها بحرارة .. كنت أرقبه من النافذة وهو عائد يهرول بقفزات تزغرد .. خرجت لملاقاته على المصطبة .. عانقني . وجرّني بإلحاح إلى مكان الكرمة .

حفنة انبساط

في ميدان السويحلي أجولُ بمخيالاتي .. أسفحُ خيالاتي على محراب النور.. أبحثُ عن ضياعي .. لا أحبّ تجنيد أحد .. داخلي سيعاديني إنْ استعنت بغريب .. زيتنا في دقيقنا المطحون جيدا .. جوعنا يتسول تخمة قمامة .. الذباب يتبرع بطيرانه بعيدا .. الدود يختفي واهبا ذاته .. ألوك تفاحة في ظلام أحادي .. لا أكترث للونها .. يلذني دبقها وهبوزها .. عندما قبّلتها لم أتمالك نفسي وبكيت .. الكارثة دائما تبدأ بقبلة .. !

في مقهى بميدان السويحلي جانبتني فتاة .. لم أكلمها .. ما زلت أحبّ .. وسأظل أحبّ .. أحبّ الصمت يا حبيبتي .. دعيني ولا تقتحمي أبواب حروفي المُشرعة .. قبل أنْ نلتحم بُحت لك بالسر.. وبعد الالتحام صنعنا أسرارنا المرئية وجنوناتنا الفاضحة ..

مُتقهوي في الركن يدخّن.. عيناه ترشفان المزاج.. آخر يرشف الوجع بعينين غميضتين.. النادل يدور بين الطاولات.. جاءها: شن تُشربي؟

نظرت ناحيتي وقالت : نبي نأكل أني جويعانة ..

تسمحين لي أنْ أشتري لها فنجان قهوة ..؟

لا .. خلّي البنت في حالها .. محمد .. أرجوك أعصابي..

أخفضتُ رأسي وتركها النادل فأخرجت سيجارة بترت ربعها رمته في المنفضة وتلفتت باحثة عن لهب .. أنا الأقرب .. هل أولّعُ لها يا حبيبتي ؟.. لو فعلتُ سأنهار مع أول نفثة .. الدخان الذي أنا سبب حريقه سيجذبني إلى منبعه .. هناك منابع دخانية تخنق .. تمنحك أكسجين مجنون .. الكارثة دائما تبدأ بقبلة ..

المطر يبدأ بقبلة سماوية ..

الزلزال بقبلة أرضية ..

المخلوق الجديد بقبلة رحمية ..

أليس الجديد كارثة ؟!

ها أنذا كارثة بالنسبة لك!!

أسبوع في طرابلس .. سبع مكنونات من الصبر.. أنا صامد صامد أنا صامد .. أحملق في المرناة .. أخربش نبضي .. أقرأ أوراق دميعاتي .. أنقش حبيبتي على لزوجة دمي .. آكل جيدا في مطعم البرعي .. أستحم جيدا في بخّارة درغوت باشا .. أشرب .. أدخن .. أثرثر.. أتسكع كأيام ملت شهرها .. أسهر.. أحلم طويلا و لا أنام ..

طرابلس تشدني من تلابيب سرحاني .. هي عروس البحر وأنا عريس الملح .. لم أخرج منها قط .. لم أغادرها غاضبا رغم صراخي .. تعرفتُ على حواوي .. رفيقة طفولتي على شاطيء الشعاب .. أحسّها أمي .. أختي .. ناموس مفقود بين الصديقة والحبيبة .. تحاورني بدفء .. وكأن حبيبتي أوصتها عليّ .. ضباب الاحترام يعزل شقاء نفسي .. يلجم سنونوات جرأتي .. كلما تحدثت تأملتني وكأنها ستأكلني .. وكلما تأملتني أكثر ركّزتْ بعمق حتى تتكرمش جبهتها .. حبيبتي أبعديها عني .. لا أحتمل هكذا سحر..

الله يسامحها .. مدينة أسامحها وبلد لا أسامحه .. لا أمارس أي تفرقة ترابية .. أحيانا أحب الشفتين وأكره السّرة .. السرة مربوطة كتاء على سطر مترنح .. حلمتاك نقطتان ستتمزقان من نزّ اللبن .. اللبن يُحبني وأيضا الحليب .. أحررهما دائما من صهاريج الخجل .. كلمة أحبك لم تقلها السرّة .. قالها اللسان .. أنا سُطير أعمى.. وحلمتاك بصر نظير..

التقيت حواوى في سوق الجمعة .. لم استطع أنْ أحبها حبّ فوق حبّ عبث .. أوراق اللعب تتراكم فوق بعضها .. لا نراها ولا ترى نفسها .. تعبثُ بمصير ديوستوفسكي .. تستكتبه مقامرة في أسبوع .. حبّ فوق حبّ عبث .. وعبثي ن أظل أحبّ .. أخاف العجلة ولا أخشى الشيطان ..أخاف أنْ أسحب (شنكة).. الأحاسيس تغويني.. وكلمة سوف تقبع على سُدّة إرادتي .. سوق الجمعة

سأجعله سوق سبت .. سوق أحد .. إثنين .. ثلاثاء .. سوق أربعاء .. سوق الخميس سأجعله سوق جمعة .. أف حواوي .. حياتنا سوق وسلعتنا لا نجدها..

سأحيا في العبث .. كنفه صادق وسيع .. لا عطب يسببه لدماغي ..جنّة الفكر الجنون .. سأرمي بحياتي فيه .. كفّ إمرأة محقّة تُركبني .. حبيبتي مرفئي .. أنا مقلاع فلترجمي بي من تشائين .. أنت لا تُريدين إصابة السعادة .. ولا تريدين للشقوة أي نزف.. البعيد سعيد .. قربنا سيشفيه .. فلنبتعد إلى بُعد لا جوار له .. لا بعد بعده .. بُعد ناءٍ .. مجرّته منفلتة .. فلك بكر لم يره جاليلو ولم يجسّه خيال السورياليين .. عندما نعطش نشرب معا ما تقطّر أرواحنا.. روح جافة تتقشّر حياتها .. نفس إمّعة لا تحتمل وهج تمردنا.. سنشرب ما تقطر لنصير مخزون بؤس يتلاحق بحرا ينفجر فيه ..

بعد كلّ فعل لا يأتي فاعل .. بعد كلّ مبتدأ لا يأتي خبر.. كلّ آت قاتلني ولو كنت أنا !!

كان لزاما علي أنْ أكون جيدا .. أحبّ أنْ أكون سيئا .. أكره دروس المطالعة والأناشيد .. أحبّ الجحيم .. أحبّ أنْ أصله وأتدفأ بناره ..

من يُصعدني على ظهره وأمنحه يقيني ؟!.. لا أحبّ الوصول إلى النار ماشيا ..

راكبا (معلش) .

الهواء ثقيل .. الدم خفيف .. الظل باهت .. النور ظلام .. الحبّ صفعات على قفا قلبي .. المطر ورد مصهور .. وماذا بعد يا جنوني .. يا حواوي .. لم أنس بعد قطعة الكيك .. وفنجان القهوة .. لك في لحم كتفي حُصّة .. ولو لك ذرّة ضئيلة فهي مُشعّة ..

لم أنس بعد ذاك الصباح البعيد .. لماذا الصباح بعيد رغم مروره كل يوم ؟! ..

ذاك الصباح الذي أجذبه من تلابيب شروقه ..

أنتله من عروة فجره ومشيمة ضحاه المشمسة ..

أين ديكه يا ترى ؟!

هل تزوج ففقد ريش حنجرته ..؟

استحضر من كان جالسا في سابع سماء .. منصور .. أرسله ليحضر من اكاكوس نقشة لحتّتنا .. أمنحه ابتسامة تواطؤ وتمنحينه هزّة كتف وترقيصة حاجبين ليهبط ويتركنا ..

- هذا من بنغازى وغدوه مروّح .. عدّي سلم أوخيي .. بكري مدير التحرير بعثلك بيعطيك مكافأة العمود ..

في تلك الليلة كنت تحضّرين الكيك .. تضربين البيض برفق .. ضربات خفيفة كضربات ايزابيل الليندي .. تخلطين بياضه الحوراوي باصفراره الزعفراني .. الأصفر يطغى .. الأصفر يطغى ..

تبيضينه بحفنة دقيق .. يشيب الخليط و لا يشيب رأسي ..تُضيفين (البيكنبودر) والمساحيق العطرية .. وأنت تخلطين عجون العالم تتكون فقاقيع تنفجر.. ووجوه تشوهها الملعقة .. تكشطين المخلوق الى وعاء الكيك ثم تودعينه جهنم النضج .. وتتسمّرين جانبه كي لا يحترق أو يُمسخ ..

- أنا لست بائرة .. أنا حّرة حارّة .. مكرونتي ما تشيّط .. قد يشيّط عمري .. لكن طعامي بعيد السو.. لابد أنْ يكون لذيذا .. لابد أنْ يكون ذاكرة في البطون .. هاهو محمد يعود إلي رغم أنني لم أسحره .. لكن لم يعد لي وحده .. يا لحظي .. هناك ظل يلازمه .. أنا أراه وإنْ توارى عن غيري ..

هكذا تذوقنا الكيك .. لم أفطر ذلك اليوم .. جئت الى مؤسسة الصحافة .. أسوّق بضاعتي على الصحف المغلوبة على أمرها .. بضاعتي الرديئة آنذاك والآن .. أكره أنْ أكون كاتبا .. أرفض الكتابة كما تتراءى .. أسوّق بضاعتى التافهة .. عديمة الأنموذج .. لكن هناك من شمّها .. وألقمها حبيبات سكّره .. وشملها بنظراته العطوف .. وفعل لها أشياء أخرى مدفونة في سجون اللاوعي .. حلمتُ بها في الليل .. قد تنفلتُ من كبالات الآمال إلى بحيرات التحقق .. أعرف بعيد السو.. أعرف بعيد السو !!

كانت عيناك تروقان لي .. وجبهتك المتكرمشة أيضا .. ومسكتك للسكين ليست مسكة طعن .. لم تقطعي لي مثلثا صغيرا أو

دائـرة .. نظـرتى لى بـرهة .. تتبعـتـي عـرقي السـائح مـن الصـدغين .. قطعت لي مستطيلا سميكا مخضبا بحنّاء الحلوى الشوكلاتة اللبنية..

قدّمت لي المائدة .. مستطيل كيك .. ومنديل معطر بأنفاسك .. وفنجان قهوة غير مثلوم .. وابتسامة ابتلعتني ..!

لن تذهب إلى طرابلس مرّة أخرى لوحدك !!

رشفت وأكلت تابوت السكر.. كفنته بنسيج لعابي .. ودفنته في مقابري التي لا أتبرزها .. هو سنام الذكرى في أزمان تعاستي .. هو نُسكي البريء وصلاتي الحلوة التي أمتصها ساكبها على مراراتي .. حواوي يا حبيبتي أعطتني كيكة .. كيكة أصيلة عتيقة .. كماء سانية لم ولن تنزح .. كان ذلك قبل اشراقتك .. قبل أنْ تغطسيني في بحار التورتة دون مسح .. سأعطيها سبيكة محبة .. سأمنحها من شظايا العمر حفنة انبساط .. لقد ضُحك عليها كثيرا .. تضاحك بها زمرة أوغاد مستأدبين .. ثلة قوّادة أكرمكم الله .. سأبكي عليها بحروفي .. أحبّ مناديلها العطرة بعبير الظلال .. عندما مسحتُ فمي بالمنديل استخسرته في سلال القمامة .. ليس كل المناديل مُتسخة .. منها من يزداد نظافة بالمسح .. هناك نظافة عتيقة ومناديل أثرية .. المناديل كما الورود يانعة وذابلة وذاوية .. مازلت أحتفظ به كمنديل بكارة .. طالما أخرجته في لحظات الخصام والوحدة والفقد .. أتأمل بصمات أصابعك عليه .. وحبيبات السكر العالقة في حواشيه .. وبقعة حُميراء قرمزية في منتصفه .. هي صاري

الشــفافية الفاقعــة .. لا أدري أمــن طــلاء أظافــرك ؟ أم مــن روج شفتيك؟ أم من صبيغ حنّة تائهة ..

أعرف .. بل أتيقن أنّها ليس دما فلا أذكر أنني مُتّ فجأة ..!!

خربشات بيراع العض

أسناني اللبنية غادرت الواحدة تلو الأخرى كنت أجذبها بسبابتي وإبهامي وأرميها ناحية الشمس منشدا: (ياشمس يا شموسة. يا عوينة العروسة. خوذي سن حمار. واعطيني سن غزال). وإذا عجزت عن اقتلاعها لشدة الألم أو الخوف هرعت إلى أمي التي تقابلني بابتسامة وتجذب السن المتخلخلة بواسطة سلك لدائن متين. لا أصرخ مطلقا. خاصة عندما تهمس في أذني :

(الرجل يتحمّل الرصاص والجمر) وتجذبها فجأة فأبتلع صرختي وتسحّ دموعي تلقائيا تمسحها لي بطرف ردائها الوردي وتنفحني حفنة حلوى وخمسة قروش إنْ لم أشتر بها اسفنز وزلابية أزقها في شق صندوق صدقات سيدي شاهر روحه.

رميت للشمس أسنانا كثيرة. كانت حذفتي قوية. حتى أنّ أخواتي وبنات الجيران الصغيرات يستعنّ بي في تقريب أسنانهن للشمس. كم كنت سعيدا وأنا أتابع غياب الأسنان في الجو كطائرات

ورقية انقطعت أسلاكها فجأة.

من المؤكد جدا أنّ الأسنان لا تصل الشمس. فالشمس بعيدة. وحذفتي مداها لا يتجاوز المائة متر. أعلم بذلك في قرارة نفسي. لكن أفعل فعل الرمي بسعادة وثقة مُتيقنا أنّ النيّة تحقق المستحيل.

أقدّم قرابين فمي لشموس كل الفصول. أفكّر دائما أنّ الشمس مستودع لأسنان البشر. قنفود من الصهد والنور. تعضّنا إنْ حارتنا في الفيافي والصحاري. أرى صورتها على صفحة سبخة رأس عبيدة المردومة منذ أمد. أراها تتمرأى نائحة رطوبة رائحتها الملحية اللاذعة. ها هي طيور السبّاحي تصنع بريش أجنحتها بعض الظل. وعندما نحاول قنصها بالمقاليع أو بالبندقية ذات الرشّة الواحدة ترتقي مستجيرة بالشمس ومن ثمّ تتوغل في بعيد السبخة مبتعدة عن مدى رمايتنا فنعضّ شفاهنا حسرة ونبصق غضبا ونعود إلى أمهاتنا في حلاليق الزينقو الكثيرة الثقوب.

كان الفصل شتاءا. وأسناني القليلة تصطك والفاقدة مقابلتها تؤلم لحم اللثة. اللوزتان ترفع حرارتي. وأمي تدهن رقبتي بمرهم الفكس. تناولني كوب سحلب ساخن. شهيتي مفقودة من الحُمّى. والمطر يطرق سقف الحلاق المصمم كظهر حمار. براد الشاي فوق الكانون (يركرك) وأصطوفة الكيروسين تنضج الحساء على مهل. داخل براكة النوم الجو دافيء عطري حميمي. فراشنا نطوع كباش وغطاؤنا منسوج سميك يسمونه حمل. أما وسائدنا فخراويط محشوة

بالقش والريش وقصاصات الأقمشة البائدة. الراديو مُعلق في مسمار النافذة يصدح بأغنية محمد صدقي : (طيرين في عش الوفاء. باتن سهارى كنهن). لم أعرف الحب آنذاك ولم يأت عقلي بأنّ الطيرين هما العريس والعروس. كنت أظنهما خليش وسبّاحي. أو بوبشير وأم بريما. أو بوعبعاب وأم بسيسي. عرفت الحقيقة فيما بعد. عندما تغرّلت أسناني كما طلبتُ من أمي الشمس. لكن أسنان الغزال هذه مؤلمة أنهكها التسوس و صفرها التبغ والخمر الرديء وتصدّع بل انثلم عددا منها بسبب تكسير اللوز الكاسح وجذب نتوءات صلبة بهن. وواحدة انثلم نصفها جرّاء لكمة فُجائية أثناء إحدى الشجارات في مباراة كروية. لم أكن طرفا في الشجار. كنت أحاول فض الاشتباك. أي (الحزاز ديما واكلها). والآن ها هي أسنان الغزال ترحل تباعا. لا أرميها إلى الشمس. ولا أدفنها في التراب. أتركها لطبيب الأسنان الذي بدوره يرميها مع نفايات عيادته. آخر ضرس قررت الاحتفاظ به. غسلته من الدماء. كشطت عن كيانه الاصفرار وسواد التسوس وحفظته في قارورة ماء نقي.

كل صباحٍ أشمّسه على حافة النافذة المشرعة. تصليه الشمس ما طاب لها. أتأمله. كم طحن من طعام. كم مضغ من علكة. كم فرح وحزن وتألم وارتاح. أراه كحياة جزئية مختزلة عضتني ومضت. لها تاريخها المعتبر والمحترم. هل في ضروسنا ذاكرة. ؟ وهل ضرسي هذا مُدوّنة لاشاها اللعاب ؟!. من منّا الباقي أكثر ؟. أنا أطول منه عمرا.

لا. لا. هو أطول عمرا. هو عاش لبنيا وغزاليا. عاش مرتين. عمر اللبن. وعمر الشمس. والآن أعيّشهُ العمر الثالث داخل قارورة غارقا في الماء. سأرميه للشمس وأطلب منها سنّا أخرى. سنّ ماذا ؟ غزال لا. حمار لا. سن قرد. ضبع. دراكولا. لا. لا. سأستعيد منها أسناني اللبنية جميعها. متأكد أنني رميتها كلها لها. استلمتها وأشعتها منحت راحتي دفء استلام. أترك السحاب ينجلي عنها وأحذف لها. أحذف إلى أمي المضيئة الدافئة أسنانا لا تعضّها بالظلام. حجرتي ظلام رغم مصباح النيون. بيتنا ظلام. أنفسنا ظلام غمّقته الوساوس. والعالم ينسدل عليّ انتفضت من داخلي. ركضت في أروقة متاهتي. وفي ومضة نور اندلفت الى الشارع ملهوفا أسفا. نظرت إلي السماء فلم أجد الشمس ووجدت الفضاء فارغا. خالياً من الأجرام. أغمضت عيني وفتحتهما دامعتين. لم أتبيّن شيئا. كان الوقت ليلا. بعد عدّة مسحات بمنديل لاح القمر وحيدا. خجولا. تحوطه عدّة نجيمات صغيرة. لو رميت السّن للقمر هل سيلتقفها ويقايضني كما الشمس. لحظتهُ شعّ أكثر. بوادر مُشجّعة من هلال مُتضخم. حاولتُ المبادرة ورمي السّن. يدي تثاقلت. أحاول بمخزون عزيمتي فتزداد ثقلا. أصابعي ترتخي وكتفي يتهدّل. والسّن تتملص من أخدود إصبعيْ فتسقط. أتتبعها ببصري. تنغرز في ظلمات التراب. أحاول انتشالها سريعا. يدي ثقيلة مُخدّرة لا تطاوعني. جذعي أيضا يتمرد على الانحناء. تنغرز السّن حتى جُمّتها. تتترّب، تتطيّن، تتكلّس، تتحجّر. أتركها وأجلس جانبها. أراها كمرآة ينعكس على صوّان

رأسـها قـرص القمـر وكويـرات الـنجوم. أداولُ التـبصّـر بيـنهما. أجـد القمر يبتعد. والسّن تـنغرز أكثر. تـتساوى مع سطح الأرض.

في الفجـر تقاطـر الـندى. وبـياض الـنور أطلّ بحليبه. وبضـع طيور وديـوك أطلقـت ترانـيمها الطازجـة. نهلـتُ مـن نسـيم الطـراوة. مـلأت صهاريج روحي بالهواء. بدأتْ قواي تعود والخدر يبتعد عن نبضاتي. وها هي الشمس تشرق بتؤدّة. راسمة هالة دائرية حمراء. مددت يدي جهة مكان السّن. اقتلعتها من دروب الأعماق. واحترتُ ماذا أفعل بها ؟.

هل أعيدها إلى قنينة الماء ؟. أم إلي حفرة فمي.؟. أم أخربش بها على الحيطان المتسوسة.؟!.

زقزقة

أزيح الستارة وأنظر عبر الزجاج، أعرف الوقت ودرجة الحرارة من خلال لوحة مضيئة معلقة في أعلى العمارة .

- آه مازال الوقت مبكرا ولكنني أكره العودة إلى النوم ..

أستحم ... أملأ فنجاناً بالماء الفائر، أغمس فيه كيساً من الشاي الأخضر ومكعبي سكر، أترك الشاي والسكر يغرقان قليلا .. أنتشل كيس الشاي وأترك السكر ليلاقي مصيره، ثم أرشف وأرتدي ملابس الخروج .

أتجول في الحديقة ريثما تفتح المحلات أبوابها، من عادة الصينيين تعليق أقفاص العصافير في أغصان الشجر، يفعلون ذلك كل صباح باكر، أرى الأقفاص وأرى الشمس وهي تبزغ بأشعتها التي تتخلل الأوراق كمشط ناعم، الندى يقتسم بين السماء والأرض، والأوراق تنعم بالدفء والاخضرار والطراوة ...

أسمع عصافير الأقفاص تزقزق وعصافير الأعشاش تزقزق .. الميلودراما الصوتية تنهك روحي .. فيبدأ عقلي في العمل ... لماذا لا تمتزج الزقزقتان ؟ أنظر إلى الفراخ، فراخ الأعشاش وفراخ الأقفاص، كلاهما يطعمه الوالدان، طعام الأقفاص كثير وطعام الأعشاش قليل واللذة لا تقاس ..

بعد ساعة تفتح المحلات ويعود كل صاحب قفص بقفصه إلى الشقة وعصافير الأعشاش تقبل فراخها وتطير...

قرب الغروب تقفل المحلات أبوابها ويعود الناس وأنا منهم...

في طريقي إلى الفندق شدني منظر حي لمجموعة من الشيوخ والأطفال ذكوراً وإناثاً يقرعون الطبول ويرقصون في صفوف منتظمة... رقصاتهم كتمارين رياضية والمتفرجون يبصقون على الأرض بين الحين والآخر... ثم يبتسمون حتى تتلاشى عيونهم الضيقة .. أنظر عاليا فألمح العصافير التي طارت صباحا تعود أسرابا... أسرابا .. أتأمل الطيور الراقصة والطيور العائدة ... يكويني التأمل ... أدخل قفصي ... أقف تحت الدش، أقفل عيوني مسترجعاً أحلام الذكريات القادمة !

أنفاس دافئة

إهداء لعازف المزمار الشهير الطفل

تحت أحد أقواس الفندق البلدي ببنغازي يجلس حرفي المزامير.. كان رجلا كهلا .. معظم سني عمره سقطت في جُبِّ الزمان.. شدقاه متغضنتان بعد رحيل معظم ضروسه إلى الشمس .. تجاعيد متشابكة قرب الصدغ والعينين .. سراب من لحم يرسم خطوطا أفقية على جبهته .. التف حوله بعض الشراة والمهتمين بالتراث والفضوليين أيضا .. امتزج صخب السوق بصخب تجريب المزامير.

وسط هذا الضجيج انبعث صوت صادحا بالتحية :

السلام عليكم يا عرب ..

مصدر الصوت شيخ كبير .. أنيق الثياب .. مهذب الشوارب واللحية .. ترتسم على محياه أمارات السعادة والرضا .. يرتدي جردا أبيض كثلج .. يتدلى من عقدة صدره منديل برتقالي .. لوح بيده لكل

المحتشدين .. أفسحوا له الطريق وأجلسوه جانب الزامر على مصطبة مُغطاة بورق مقوى .. التقط أنفاسه .. استراح قليلا .. تفرّس في وجوه الحاضرين .. ثم التقف مزمارا لامعا تنتهي قصبتاه بقمعين من القرون تفتحان إلى أعلى تربط أجزاءه حلقات رقيقة من الجلد القرنفلي القاني .. بينما يتأرجح من عنق المزمار عقد مزدان بالقرنفل والمحلب وقرون الجداء الصغيرة .

جرّب الشيخ أكثر من بالوص .. أخيرا اهتدى إلى التوافق الملائم بين نفخاته وتحريك أصابعه واستمتاعه .. الكل تملكه التوق للاستماع .. أرسل بأنفاسه الأنغام لتتهادى ببطء كنسيم رهيف مس جناحي نحلة منهمكة في ارتشاف الرحيق .

سكنت الحركة .. الصخب قل .. والنغم الذي نقشه في الوجدان أسرَ النفوس .. السوق توقفت .. أنزلت صروفها من الكفّات .. الكل بدأ يقترب .. الكل ترك بضاعته يحرسها الاطمئنان .. أصبحت الأنغام تتناثر في الفضاء .. والآذان تزدحم حولها .. تلاحق الصدى لتمسك بتلابيبه المنغمة .. أصابع الشيخ تنتقل برشاقة فوق آبار الثقوب .. تحت الثقوب هواء دافئ .. تبعثه رئتان حنونتان .. كلما رفع الشيخ إصبعا فاض الومض مع النغم وانساب عبر القرنين لحنا شجيا من صدى النور

حرفي المزامير سعيدٌ جدا جدا .. راجت بضاعته .. دبّ النشاط في يديه النحيلتين .. تناول من جرابه سكينا وأخرج من قفة السعف

التي بجانبه أعواد قصب رقيقة .. أخذ يشق مقدمة القصبة بدقة .. يجرح قاطعا من ظهرها بتأن .. يرفع اللسان المشقوق بظفره .. يتركه يرتطم فجأة محدثا رنّة لطيفة .. ليلقمه بعد ذلك فمه نافخا في لوحه روح النغم .

الناس حوله مازالت في رحيلها مع الشيخ الزامر .. تستمعه بنشوة .. ترقص مع ارتعاشات البلبلة العذبة .. تصفق .. تقفز .. تصرخ .. تبتهج لما تحدثه الموسيقى الشعبية في مكانينهم من وجد .. الشيخ لم يتوقف عن التزمير .. أصابعه لم تتعب .. رئتاه لم تشعرا بأي ضيق .. سحر الأنغام أذهبَ عنهما كل صدأ أو صديد .. لكن عينيه ليست معه .. إنهما في مكان آخر .. امتطاهما خيال لذيذ .. أصبحتا مغمضتين أمام الناس مفتوحتين في عالمه الذي يعزف له .. تعرف ذلك من تقاسيم وجهه التي تتسع وتترحب في فضاء الابتسام .

اقترض الشيخ بعض الأنغام من آذان الحشد المستمع .. أرسلها بزفيره الهادئ إلى حبيبته .. هي الآن جدّة حنون تسكن أحد نجوع درنة .. رماها بسيل من نغماته .. عيناه مترقرقتان بالشجون .. ازدادت النفخات والدقات نبضا وخفقا في إيقاع مؤثر .. تعيده عبر وفاء مخيلته إلى ذاك الصباح المشرق الجميل .. عندما كان جالسا إلى جانبها تحت شجرة بلوط وارفة الخضرة والظل .. هي تحلب عنزة وهو يُسعّر النار .. هي تلبس رداء مزركشا وهو يلبس سورية تمزّق أسفلها من حبو الحصاد .. ناولته قدح اللبن الطازج

فناولها خبز الشعير الناضج .. أكلا .. شربا .. حمدا الله و نظرا إلى السماء الصافية.

قال لها : بارك الله فيك زودتيني بالزاد والماء سألتحق بالمجاهدين بسيدي عمر المختار.

ابتسمت مشجعة .. رافقته حتى مربط فرسه في جذع شجرة الزيتون .. همست له وهي تعلف فرسه بحفنات من الشعير والقمح :

ألا تحتاج إلى شيء ؟!

ابتسم لها قائلا : أحتاج إلى زغرودة !

مذ ذاك الزمان لم يرها .. قُبض عليه أسيرا في إحدى معارك الجهاد ضد الطليان الفاشيست .. أقتيد عنوة إلى جزيرة في عرض البحر.. كان قلب البحر رحيما وقلوبهم قاسية .. كان البحر سلوته في ليالي الوحشة والبرد .. دائما ينعشه برذاذ دمعه المالح .. عانى الكثير من الجوع والعطش والمرض والعذاب والحرمان .. سرقوا جهده.. امتصوا دمه ودمعه وعرقه وشبابه . نهبوا منه كل ما يملك من متاع .. الشيء الوحيد الذي عجزوا عن انتزاعه منه هو زغرودة حبيبته البدوية .. والتي يرسل ترنيمات أنفاسها الآن عبر مزماره .. لتتشاجر عليها آذان المخلوقات وتقطع لجمالها الأخّاذ أصابعها ..

أعني تجارتها .. ومشاغلها ..

توحد

أنا مهجة

سأشحذ ذاكرتي الميتافيزيقية لأتذكر من أنا ؟! ..

ومن أين جئت ؟ .. ولماذا جئت ؟ ..

سآتي بإجابات ولن أفجّر قضايا أو تساؤلات ..

لن أجنح ناحية الطلاسم ..

سأتشاجر مع نفسي المادية والمعنوية وألومها .. سأضربها من الداخل بقوة وبعنف .. الآن سأعود إلى الوراء .. كنت بويضة ناقصة / حيوانا ناقصا .. أحتاج لآخر لألتحم به .. ليس من أجل الزواج العادي .. لكن من أجل الزواج الذي يجعلني كائنا سويا .. كنت أسبح مع ملايين من إخوتي .. في بحر جسدي لكائن حي .. أسقط لأغوص في الماء المقذى بالصابون .. أو أجف على خرقة قماش أو منديل ورقي .. ولكن في النهاية أعود إلى مأواي في الصلب أو الترائب عبر الغذاء أو الهواء ..

المهم أن الخروج لا يميتني بعد لحظات كما يزعم أغبياء الطب.. بل يحييني في بصائر راعشة وأعماق مضيئة .

وفي ذات مرة كنت قد تدربتُ جيدا على إصابة الهدف من جميع النواحي وكنت قد تصارعت مع إخوتي وهزمتهم جميعا حيث احتللت مقدمة الطابور ولم أنم لأنّ الإنسان المزروع أنا فيه غريب/ غريبة الأطوار.. لا موعد ثابت له ..

كانت الليالي شتوية ورائحة الشاي والكاكاوية واللوز تختلط بعبق البخور والعطور وصوت الموسيقى الهادئ ينساب مداعبا آذان الرغبة .. في تلك الليالي شعرت بأنني سأُقذف .. تشبثت بمقدمة المنجنيق .. تخيلتني أدك حصونا بداخلها البويضة الشرهة التي ستعانقني .. / الحيون الشره الذي سيعانقني .. وتقسمني وأقسمها.. لم يدم التخيّل طويلا .. سرعان ما بدأ فيها (واحد ربي) .. ولم يمض وقتٌ طويلاً حتى قذفت مع ملايين من إخوتي .. ولكنني أنا السبّاق لاختراق البويضة المرحبة .. لاختراق الحيوان المرحب .. التحمنا في بعض .. باركنا الله بالحياة .. تحولنا من اثنين متوحدين إلى واحد أبدي وبعد أربعين ليلة اكتسبنا خاصيتنا الدنيوية الواحدة.. امتصصنا الغذاء عبر المشيمة .. كبرنا رويدا .. تدريجيا .. بدأنا نتكور ونصك بقوة لنخرج .. فقد أصبح الوعاء ضيقا مظلما رطبا .. ما تعودنا على هكذا سجناً من قبل .. قبل الالتحام كنا نقذف كل يومين أو ثلاثة أو كل شهر قصير.. فنشم الهواء ونعود .. أما الآن فتسعة

أشهر من السجن شيء مر .. كنا مشتاقين لرؤية الحياة التي نحن جزء منها .. وددنا أن نرى الشمس والخلق والشوارع والزنق .. وكل شيء بعين متوحدة .. وفي إحدى الليالي ازداد حجمنا .. ولم يعد رحم أمي يسعنا فانفجرنا لنخرج صارخين من حيث دخلنا .. استقبلنا بمقص حاد بتر حبل رزقنا الفطري .. كان القطع مؤلما .. صرخنا .. صرخنا .. بدأنا نستنشق أول هواء لنا فض بكارة رئتينا .. شعرنا بالضيق لتلوثه بالدخان .. كدنا نختنق لولا نجدت الشمس التي أسعفتنا بشعاعها المنسم بالدفء الذي سرعان ما أذاب كلس الاستقبال الفاتر.

كبرنا .. تزوجنا .. صرنا أربعة ملتحمين في اثنين .. نتشظى لننشطر متصغرين .. ورويدا رويدا .. أخذنا نجف .. وقنابلنا تفرغ بارودها .. وصمغ التماسك يذوب وأمشاجنا صارت رفيعة هشة .. تركض إلى الاضمحلال والتلاشي .. وعندما شفّت .. تسامت مع الروح متحررة من سجن ضعيف ينصاع إلى محرقة التراب ..

آه بويضتي آه حيواني :

نسينا أنْ نُجب على التساؤلات رغم معرفتنا لها في هذا العلو الطاهر.

- نجيب ..؟

- لا

- لماذا ؟

- صمت

لم تتكلم .. نظرت إلى محّها العميق ثم أقسمت لها بالطلاق أن تجيب فقالت : من أنا ؟ أنا وأنت .. من أين جئت ؟ يا ترى .. ربما نطفئ نيران التراب الباردة بتوحد جديد .

عبق النور

في ليالي الشتاء أتسلى بقشور البرتقال، أمزّقها فسخا قرب لهب الموقد، يتأجج اللهب برهة ويعود إلى حاله .. يراني مصباح الغرفة فيلوّح لي برعشة شعاع .. والحشرات الحائمة حوله تضحك علي وعليه .. الخيط المتدلي ما بين السقف وقبعة المصباح ملئ بروث الصيف الماضي .. الخيط مضفور.. السالب يلتف على الموجب والموجب على السالب و(دواليك) ..كلاهما ليس عاريين .. كلاهما متدثران بعازل لدائني سميك .. العاري فيهما هما البداية والنهاية .. أنا خيط طيني بدايتي دامية ونهايتي دامية ومنتصفي نزيف هموم يرحل إلى الوراء ويرحل إلى الأمام والسعق المؤلم يعيده حيث أنا .. لا الحضيض يمنحه فسحة أمل ولا جنان الارتقاء .

أمزقها فسخا (قشور البرتقال) قرب لهب عمري .. أتمتع بمنظر الومض قصير الأمد ... براد الشاي غطاؤه يرفعه البخار .. نازوز مصبه يخر ببخار أقرب إلى الماء النحيف .. أرفع البراد عن الموقد ..

يطبق الغطاء شفته على فوهة البركان .. ألقمه ملعقتي سكر وأرص في جوفه الفائر خلبة نعناع .. ثم أحكم الغطاء وأشد الموقد من أذنيه بورقتي كرتون .. أهزهزه جِدا وسطي ليتجمع الجمر ويتركز سعر النار في المنتصف اللعين .. أمسك البراد من عروته الوثقى وأثبّت سفور مقعدته على فراش السعير.

بعد منتصف الليل الكل ينام .. والريح تعصف .. تدفع بهوائها زجاج النافذة .. أخرج زجاجتي وكأسي المتناسخ مع كأس ديك الجن.. في الصحن الذي أمامي حبيبات زيتون وليمونة شرشرها سكين حامض وخيارة معوجة إلى أعلى .. أم كلثوم تصدح بهل رأى الحب سكارى مثلنا .. وديوان أمل دنقل يشاكسني بقصيدة الزهور.. لكن لن أهادنك يا زجاجة الجن العطري .. سأقطف منك كأسا وأعبّه ببطء أبطأ من البطء الكسول .. تتفاعل أعصاب رضابي مع مذاق خمر الجن العطري .. أسعفها بزيتونة مالحة وأقضم من اعوجاج الخيارة .. وأعود مترنحا إلى قشور البرتقال .. هذه المرة أعبث بها ليس مع جمر الموقد الذي خبأ .. إنما مع أعواد الثقاب ذات رأس الكبريت الجاف .

أيها الكحول لماذا لحمي ينتشي فتحمر بشرتي وينز عرقي ويرحل خجلي وتطل حبيبتي عارية كالنجوم ..؟!

أيها الكحول لماذا تركض بسرعة في مضامير العروق ؟ ..

أيها الكحول لماذا تحقق لي الأماني التي تزول ؟!

أنتصب واقفا .. أضغط على زر مصباح النور.. أسكب من الزجاجة على البلاط .. أجول ببصري في ظلام الغرفة .. الحشرات تهبط وتقترب من نور الوناسة الرومانسي .. تتعانق الحشرات قرب سريري .. أترك لها سريري دون شعور بأنني قوّاد .. أغض بصري عن السفول وأرى لأعلى .. الخيط المضفور شانق المصباح يرنحه هواء النافذة فيرقص مثيرا ذريرات من الروث القديم .

كل صباح أنظر إلى الشمس فلا أرى حول قرصها أي حشرات رغم أن الحشرات تطير وترتفع عند الهش .. حتى عندما زرت مرصد القبّة الفلكية بطرابلس ونظرت عبر مجهره العملاق رأيت الشمس نقيّة من كل عتم .

أرقت كأسا آخر على البلاط .. لم يسكر الهواء .. لم يزمجر.. لم يتزوبع .. لم يخف أو يخجل .. بل لم يومض رغم أنه مشتعل بحروب الأيدي والألسن والنفوس المريضة بالضرب تحت الحزام المفقود .

ظل الهواء شتويا قارسا جافا .. أوقدت عدّة أعواد دفعة واحدة.. خبأت حال انتهاء محدودية خشبها .. شعرت بسعادة تحرري من الخشب .. عدت إلى قشور البرتقال متسائلا من أين أتاها الكحول والنباتات لا تشرب الخمر.. قشور البرتقال تنفث كحول الضوء فيشربه الفضاء وكحول الخمر لا يشربه إلا عتم اللحم ..

غضبت.. أخذت زجاجتي إلى المرحاض .. بوّلتها فيه حتى آخر قطرة.. ورميت مثانة الزجاج والكأس في مكب المهملات ..

سحبت خيط (السيفون) فرقع الماء فأغلقت الغطاء .

الصيد في الشتاء وفير.. خرجت فجرا رغم البرد .. كانت الأمواج ترطم أجساد الصخور.. تسكرها عنوة بخمر الزمن .. تنقش على صفحاتها مسامات الدهور.. رميت بصنارتي المفخخة بالحسك المطعم .. كان حسكي يترنح .. أسقط كل الطعوم في أعماق الظلام وعاد لي بضفيرة من طحالب البحر الطريّة .

في المساء كعادتي أخذت أتسلّى بالضفيرة .. أنقّيها من الثفل والقش وقبور القواقع الصغيرة .. وعندما تذكرت قشور البرتقال قربتها من اللهب فأرسلت قبسا ذا رائحة طالما شممتها كلما اقتربتُ مع حبيبتي من نور فتيلة مضمخة بزيت الزيتون النقي .

دورة واسعة

مشتعلة خُلِقتْ على الدوام .. لا يطفئ لهيبها ما تذوّب من جلود وجليد .. والسماء تسع الكل .. المشتعل والمطفأ .. المضيء والمظلم .. لا تمنع أحدا من التعبير .. ومهما حدث فالفضاء يظل فضاء وليست أعيننا هي التي تحكم على شفافيته أو عتمه .. فهناك أضواء غير أضواء النار والنجوم .. وهناك عيون غير عيون البصر والقلوب .. وهناك عيون يا حبيبتي غير عيون الثقوب .. أغمضوا فستبهرون .. صدقوني ستبهرون .. ربما إلى حد الاحتراق .

سأسأل لماذا اليوم القيامي أطول من الدنيوي ؟

أعتقد أنني أجبت أو أنني سأجيب .. قفلت ومضيت ليس على غير هدى فأنا في الأرض وأعرف أنّ الأرض تدور حول نفسها مرة في اليوم .. قلت لماذا لا أدور مثلها ؟!

أدور حول نفسي على الأقل .. تخاصمت مع عقلي .. اختلفت معه حول كيفية الدوران .. من الشمال إلى اليمين .. من فوق إلى

أسفل .. أو العكس .. أأتدحرج ؟ .. أأتمرّغ ؟ .. أأتقافز ؟ .. أأبدأ من أقدامي أم من رأسي ..؟

لم أصل معه إلى حل .. ظللت مقفلا .. ظللت ماضيا في طريقي.. تحملني خطوات عمري المتخمة بزمن الفلك .. رن جرس الحصة ودخلت الفصل .. بدأت الدرس .. أدوّر بأصابعي رأس الكرة الأرضية مع أنني لست إلهاً .. هكذا يا تلاميذي الأرض تدور.. أضع أصابعي الأربع على سطح الرأس المزرق .. أجرّهن بسرعة .. أدوّر الرأس عدة مرات في أقل من ربع دقيقة .. يعارضني تلميذ محتجا .. ولكنك تقول إن الأرض تدور حول نفسها مرة كل يوم .. فأسحق اعتراضه : ليس أنا الذي يقول يا ابني .. الكتاب .. الكتاب .

وأقرّب من عينيه الصفحة المدوّن فيها ذلك .. نهزهز رأسينا ككبش وحمل ونبتسمُ ..

يقول آخر أنا أيضا أريد أن أدوّر الأرض .. آذن له .. يدوّر الرأس في الاتجاه المعاكس وبسرعة أسرع .. لا يعترض فضاء الفصل .. لا تهتز المنضدة .. سحابة تتجلى من أمام زجاج النافذة فتشرق الشمس بأشعتها الدافئة لتتفه ضوء المصباح وتجعله كما لم يكن .

كل تلميذ يدوّر بعدد المرات التي يريد وبالاتجاه الذي يرغب .. والرأس الأرضي مطواع إلى حيث تجرها الأصابع .. ورأسي تنظر ولا تدور إلا عندما تدوّرها قدماي الراسختان في لحم الطين وعظم الصخر.

رنّ الجرس معلنا نهاية الحصة ..

وضعت أذني على رأس الوسيلة التعليمية .. سمعت لهاثا وكلاما لم أتبيّنه ..

تلميذ قال : حتى أنا يا أستاذ ..

ووضع لبرهة أذنه الأرهف .. ليعلن صائحا :

تقول استيقظت .. أريد أن أتكسّل !!(أتمطى) ..

- ماذا .. ماذا ..؟؟!!

صرخت في التلاميذ : اخلوا المبنى .. اخرجوا .. اخرجو.. اخرجوا ..

بُشرى

- 1 -

بشرى صحفية مغربية، تؤرخ لحظات السعادة والشقاء، تهوى قرض الشعر وإبداع القصص القصار، حين الحبّ المتجمد في وجدانها ثار، وبدأ في الانصهار بعد أنْ نبش القرين آهات خيباته المزمنة .

- 2 -

قرينتي بشرى ..

تحية مجنونة وبعد :

ونحن نصعد مشارف الأربعين .. دون أن نلتقي .. ها أنا ذا أكتب لك..

بعد أن أمسكت بالخيط الرفيع .. أنا الرحّال عبر أثير الأديم ..

أقع في النفوس موقع اللبّ .. في السنين الخوالي ضللتني الزيوف .. أكتب لك ولا أدري عنك شيئاً ..

هل تم دخولك القفص ؟

هل تغير عنوانك ؟ أو اسمك ؟

هل هاجرت ؟

هل غرقت أو قُبض عليك في إحدى محاولات (الحرق) ؟

فراستي الشفافة تصدح بأنك حيّة .. ولم يتغير فيك شيئٌ عدا وعائك الزمني الذي خدعته كبرياء النصيب وزجّت به في سراب الصحاري..

ها أنا ذا استرقُ السمع لقضمك تُفاحة بضرس وجيع .. ليس ضرس العقل على ما يبدو..!

أنا قرينك .. ملازمك .. مراقبك .. مستمع إليك ..

أمتص كل الذبذبات .. أحرس الصدى مخافة أن تنشره أرهاف الشياطين ..

في الصباح الشتوي .. أوقف ساعي البريد دراجته النارية أمام بيتك .. أخرج من خُرج الدراجة حزمة مرسولات .. التقط مظروفاً محيطه منقوش بالأحمر والأزرق، ضغط على الجرس، وصياحه يكاد يسبق سبابته .. بشرى .. بشرى .. رسالة (ديّالك *).

- 3 -

لقد تركت المراسلة منذ زمن .. ماذا يعني وصول رسالة في الشتاء ؟! بلل .. برد .. مطر .. ربما كانت جمرة مختبئة تحت رماد النسيان .. وزمان الشقاء عاصف .. فهوّاها .. فبزغت بلهبها الدافئ المنير .. " يلا نشوف وايش خاسرين ؟! "

فضّت الظرف، رشفت بشفتيها رقعة من وجه الفنجان .. تمتمت وسط نكهة البُن والحبّهان : من يدري ..؟ أحلى الابتسامات تزورنا دون توقع ..

"جانا الهوى من غير مواعيد ".. كانت آخر ترنيمة استمعت لها قبل أن تستيقظ بعد منتصف الليل لتقفل فم المذياع وهو يستعرض آخر الأخبار وتستمر في نومها .

- 4 -

إنه من بنغازي ..

تلك المدينة الحالمة المالحة ..

ذات البحر المعطاس المرذذ على الدوام ..

على الخارطة تطل كسنام بعير.

السّنام مستودع أمن للزيوت ..

وشهقت : وأنا في هذا الزمن !! .. لا .. لا .. مش معقول ..

وفركت عينيها خشية خدعة حلم .. وأعادت قراءة المُقدمة ..

ثم توقفت عن النطق وعن الكلام الداخلي .. وتذكرت ضحكة الجمل الوحيدة .! وتحسست شفتيها بلسانها الذي تمرد وتمتم تلقائياً

- ليس كل الزيوت للأكل ..

وعانقها المد .. وفتيلها الجاف استغرق في الانتعاش .. وزيت بنغازي يغمر جذورها بالود .. إنه يهدي لي أغنية لمطرب شعبي ذي بحة عذبة .. عبد الجليل عبد القادر : ..

" يا طير سلم لي على غاليا .. سلاماً يرد الروح ليه وليا

علي بروحا ..

على قد ما خط الفقي في لوحا

قلنا الخاطر ناقضات جروحا

عامين والطبّاء ادّاوي فيّا .. "

صعد الزيت في دروب نسغها .. بهّر النور قلبها .. تريّن جفافها.. احمرت فاشتعلت وجنتاها .. حتى زمهرير الشتاء صار صهد صيف ..

وأدارت أكرة النافذة تبتسم للشمس الغيور! تحفظ في حزم أشعتها سرّ فرحتها ..

وفجأة دسّت الرسالة بين نهديها قبل أن تلتفت لأخيها الخارج من الحمام وتبادله تحية الصباح .

لم تتأخر في طمأنة توق نفسها بهمسة وجدانية

لاستطعام المسّرات بتلذذ لا بديل لي من اللجوء إلى غريفتي الخاصة.

- 5 -

في مقهى تيكة العتيق .. رشف قهوته في عجالة .. كانت عيناه تتطلعان إلى باب البريد، منتظراً بداية الدوام الصباحي الذي أزف..

كان أول الداخلين ..

وكان أول الفاتحين للصناديق ..

هجم على محتوى صندوقه بكل كينونته المبصرة ..

وكم أبهجه وجود الرد السريع . ..

لم يكن رسالة ..

لم يكن وردة ..

كان قلباً ينبض في جحيم الانتظار..

بارقة أنس

هنا طرابلس .. حيث ولدت وخُتنت .. ضبابة زمان تحجب دفء ذاكرتي .. جاء الطهّار إلى براكتنا .. الطهّار أحد فقهاء الظهرة أو فشلوم .. عجوز شنب بعباءة بيضاء وبلغة حمراء أصفر قاعها .. يتدلّى خرج جلدي من كتفه .. أحسستُ بالألم فور دخوله .. هربت .. تسلقت إلى سطح البراكة .. رأيت مئذنة الجامع وقُبب أسيادي بوكر والشعّاب وآخرين متبعثرين في مُحيط رؤيتي .. لا أدري من أنزلني.. كُنت خائفا .. لم أستطع القفز إلى البراريك المجاورة .. مازلت أذكر قعقعات قدمي والأقدام الراكضة ورائي على سطح (الزينقو) المموّج ..

أمسكني أبي .. وأمي تتلصص وسط دموع فرح وحزن .. أمي في المسْقف المُلحق بالبراكة .. تطبخ كيلو لحم الجمل .. تحرّكه بمغرف العود داخل القدر الفخّاري .. بين حين وآخر تنفخ جذوة الحطب حتى تدمع ..

رفعوا سوريتي الجديدة إلى وسطي .. أنزلوا فرعتي عُنوة .. مباعدين بقوة ركبتي المضمومتين عن صدري .. أفردوا قامتي وفعل مقص الطهّار فعلته بين فخذي ..

صرختُ وبكيت .. الألم فظيع وبكائي اتصل حتى صخت .. أمي دائما تقول : وين طهرناك صخت وبخّيناك بجغيمة من أميّة سيدي الشعّاب ..

سوريتي بيضاء مضمخة بزعفران وحنّاء .. فمي مملوء ببيضة خميس محّها أصفر فاقع .. الألم بدأ يخف .. وهدايا بسيطة تتقاطر من طيبة الجيران .. (بيلة بشكوطي .. كور مستكة ملونة .. شكارة أمبولات .. زوّايا في طرفها ريشة ...) الهدية المميزة المحتفظ بها حتى الآن جاءتني من أم غرسة .. مزهرية فضيّة منقوشة بعلامات ورموز قديمة .. هذه المزهرية تنقلت معنا من مكان إلى مكان .. جوفها تذوّق ياسمين الظهرة .. وقرنفل الخمس .. وفُل بنغازي .. وكلما سافرت إلى مراكش .. بانكوك .. اسطمبول .. بكين .. حملتها معي وأطعمتها ورود تلك البلاد .. هذه المزهرية لم تتقيأ وردة قط .. ملامح الطهّار تلاشت.. أذكر أنه طهّار فقط .. أراق دمي بمقصّه المشحوذ .. وقبل أنْ يغادرشبع من البازين واللحم والبيض .. وكوغدت له أمي ما تبقى من لحم جمل وضعه في ردنه ومضى ..

الشوارع في ضاحية الظهرة تغيّرت .. كذلك المعمار.. مازال ذاك الجامع العتيق .. المشيّد بالحجر الملط بالطين .. صليت فيه

(نهرتها) في أعلى جداره جهاز تكييف حديث .. على بسطة تناثرت بضع نشاشات سعف مصبوغ .. الملامح البكر ما غادرت .. السقف الخشبي .. الزنّور المتقاطع .. جريد النخل المتراصف بعضه جنب بعض والمنزلقة من بين اهتراءاته نتفات من تفل بحر قديم .. الجديد في الجامع هو الطلاء .. الطلاء يركب على الطلاء .. والجوف المحشو بالطين والحجر اللا منتظم كما هو .. جرّة بلون التراب يمين المحراب.. جلدها لا ينضح غير النزير.. موضوعة في وعاء لدائن .. ربما تلك الجرّة قديمة .. غامرت وشربت من مائها .. ثقوب فوّهتها تزاحمت على إروائي .. بقبق .. بقبق .. بقبق .. شعرت بألم الطهّار .. استشعرته يلهث قُربي وإصبعاه تشكشكان المقص في الهواء .. شرعتُ في الهرب .. تركت أقدامي تتجه إلى مُرادها .. أخذتني ناحية البحر .. تذكرت غرسة.. والأمواج التي قوّضت صروحنا الرملية الوطيئة .. لم أحتمل .. بكيت .. واستدرت جهة فندق المهاري.. دخلت مغسلته .. غسلت يداي ووجهي .. نشفت راحتي ودفأتهما بالمجفف الكهربائي .. وجهي لم أمسحه .. خرجت لمنشفة الهواء .. كانت الريح ظامئة .. لم أبتعد أمتارا حتى تبلل وجهي مجددا برذاذ البحر.. موج الشعّاب يقفز المسدّات .. ويرش آلام وجهي .. البحر أمي .. السماء أبي .. النجوم والأقمار إخوتى وأخواتي .. الشمس صديقتي حبيبتي عشيقتي الشاوية روحي على حطب ترائبها ..

الوقت شتاء والمطر ينهمر بطيئا كسولا .. وغرسة بعيدة ..

وآمالي أبعد .. ليتنا سحاب غائم لنعتصر ونمطر .. لا أدري أين أذهب .. رأسي يموج .. البحر .. العالم في التلفاز .. السحاب في السماء.. السيارات تجري مُشغّلة ماسحاتها .. لا أدري أين أذهب .. سأذهب إلى أين تدغدغني .. حتما سأجدها .. استقللت سيارة أجرة.. قلت للسائق : لف وراك اتوقّف ..

لا أعرف مصير ما اقتطع مني .. نتفة سُرتي تحتفظ بها أمي.. جلدة جافة ملفوفة في خرقة تحشوها في قاع مزهريتي الفضيّة.. الخرقة عاماً بعد عام تُبلى .. نتفة سُرتي باقية كما بُترت.. فكّرت أنْ تُدفن معي إذا مُت .. أنبوب غذاء يمنحني بارقة أنس .. لكن ما اقتطع من ذكري لا أدري أينه .. هل التهمه ستّور جائع ؟.. هل دُفن وذاب في الأرض؟ .. أشعر أنّ لي إرثاً في هذه المُداسة .. الأم تورّث وليس الأب فقط .. القط أكل مني وتفتت في الأرض .. الرياح لن تحمله خارجها .. الأرض من مكوناتي .. طهر أليم صاف يُعطّسني .. وغرسة أمالي تجذبني بنسيم دابق .. أضع أذني على رأس الأرض .. أستمع لأنيني .. إذاعة روحي مُذيعها أنا .. صوت الطهّار الغليظ يقتحمني .. أنت راجل يا ولد .. بلاش عياط كيف فروخ قرقارش .. قهقهات أبي الصاخبة .. نشيج أمي العطوف.. عويل جارتنا أم العز.. اغتال النصارى ابنتها معيتيقة في حومة الشط ..

عادت بي الأجرة من حيث التقطتني .. الظهرة هي الظهرة ..

مقبرة سيدي بوكر كما هي .. سورها الحليبي يصنع ظلال دهره .. سيارات نصف نقل (عكّارية) تصطف بجانبه .. تؤجر لمن يرغب حمل جثمان أو بضاعة .. أو أكياس شعير وقمح للبذر .. نحن سنابل لزجة يعفنها الهواء .. جذوع متحركة تبحث عن سُرر جذورها .. البرازخ مطامير آمنة .. ما أتعس كائني الخارج من خصيتين .. الخير والشر .. النور والظلام .. العقل والجنون .. أنا وهي .. أنا مدينة عظم ولحم .. هي مدينة لحم وعظم .. أنتما دمنا الجاري .. كلكم مدائن نحن دمها الساخن .. من يقطعنا نحن المقطوعين ؟ .. من يقطع سُرر المدن لحظة ميلادها .. في أي خرقة سيحتفظون بها .. أي قماشة تحتمل الوطء .. المدينة من أبوها ؟ .. من أمها ؟ .. كيف هي ذروة لذتها ؟ !.. على أي فراش تتضاجع يا تُرى ؟ .. بناياتها تتشاجر رأسيا .. رؤوسها تتطاول مائلة لتتناطح .. البراح يضيق .. الأفق ممتد ولو فصله بحر .. مُدن يتيمة معروف والدوها .. مُدن سفاح رحمها تائه.. هل هناك مدن هربت من مقص ..؟ أرى مدينتي تمشي على نفسها حافية حتى من الجوارب .. حتى من الحنّاء .. الحنّاء ليست طلاء أظافر .. والسواك ليس أحمر شفاه .. صخورها كدار الجامع .. مدفونة في الداخل .. الطلاء بارد عطش .. طبقاته جليد متراكم بعضه فوق بعض .. طبقة تجثم على طبقة .. التقشّر جمال مرفوض .. الأيام طلاء.. السنون طلاء خاثر .. أمّا الحقب فقطران هلامي .. يندلق بوهن .. رغم ميلان المكان الحاد .. وانخفاض منسوبه المرعب عن جنان الحظ..

أنفاس الصباح

قدري أن أتواجد في هذا الزمان، أتجول في جزيئاته، أتوجع من مآسيه، أشك في مسرّاته العجول، أمقت قبض ريحه، أحاول التكيف، أهدر طاقاتي للظفر بلحظة واحدة ذات معنى ..!

العجيب في الطاقات أنها متجددة، مهما أهدرت أجدني وقد امتلأت أكثر من ذي قبل ..

آه يا صدري المتمطي ألا تكل ؟ .. ألا تمل ؟!.. ألا تخجل ؟!

مدفوع أنا لشيء ما .. منذور له .. هكذا أحسّ .. لا شيء مستمر .. تقطع .. تواصل .. تقطع .. تواصل .. حتى وإنْ مُت فسيحدث الاتصال .. ويتقطع غفو اللحود .. لأدفع لامتحان مقدّر كنت قد أجبت عن أسئلته في أزمان سالفة !

نظرت إلي الساعة، الرابعة صباحا الآن، المنضدة مليئة بالقشور، الأوراق متناثرة في الارجاء، أوه، وقلم جاف نازح يلهث مسنودا على كأس فارغة !!

البرد يشاكس دفء أطرافي، والمصباح في منتصف الحجرة يحملق بأشعته .. من العبث أنْ أرقص وأسمع الموسيقى الآن .. وقفتُ متكاسلا، مططتُ جذعي ، فرقعت أصابعي وفقراتي، تثاءبتُ، فتحتُ النافذة، تنفستُ والغرفة المختنقة أيضا .. وغزاني نسيم بارد، صيّرني أسعل وأعطس بلذة .. مسحتُ أنفي وفمي بطرف كمّي واستمررتُ في الاستنشاق العميق .. حتى ألفت رئتاي زفير الفجر المصفّى فأطلقتُ العنان لبصيرتي المنتعشة، تتأمل بقايا النجوم وصدى القمر وكثبان السحاب المتلكئة في المغادرة ..

غادرت إلي المطبخ، أعددت قهوة سريعة، فاج بعضها فأطفأ موقد الغاز، عُدت إلي النافذة أرسل نظراتي مجددا، أبحث كما ذي قبل عن لحظة واحدة ذات معنى .. الخيوط أمامي تبدو واضحة، أتبينها بيسر، التماس بين الليل والنهار مُتنازع عليه، فقد شفافيته آوان الانبلاج، سريعا ما انحاز إلي الليل فانتابني القلق وطفقت أتحسسُ زمني الراكض أحفّزه ليسرع فور سماعه زقزقات المناقير..

... في المسجد وقفت بين يدي الله، جُلت ببصري في أنوار الآيات الكريمة المزدانة بها الجدران، قدماي راسختان مرتاحتان على السجاد الوثير، روحي بالكلية متجهة إلي المحراب، الإمام يتلو والجمع يتلو وراءه، أحاول التركيز بكل انتباهاتي المشحوذة، يساعدني قلبي باطمئنانه العميق، أركع .. أسجد .. أقف .. أركع .. أسجد .. أتشهّد .. أدعو الله..أطلق السلام .. أسلم على

الذي بيميني .. وعلى الذي بيساري .. اليسار في المساجد ليس من الموبقات ..

أعود إلي غرفتي أنظّف المنضدة من القشور .. أملأ الكأس حتى جُمتها .. أرمى بالأوراق والأقلام المستهلكة .. أرتب مرقدي .. ألبس كسائى ..أروي أزهاري .. أتعطر .. أنتعل .. ألتقف أشيائي .. ثم أخرج إلي الحياة الطازجة المكتظة بمخلوقات الصباح .. كل على باب اللّه .. ذلك الباب الواسع المشرع الشفاف الخالي من الرزّات والأقفال، المفتوح لكلمة بسيطة .. يارب .. يارب ... يارب !!

سف اللبن

جدي جالس على حصيرة في بيت وسطه مسقوف بالسماء، عيناه تتابعان طيور السنونو المارقة كسهم، الأحفاد يلعبون في حذر متجنبين إغضابه، غرف البيت متلاصقة، تفتح في الفناء الواسع، على حواشي نوافذها وضعت الجرار والأصص والأشياء الصغيرة دائمة الاستعمال كالمشط والمرآة وعلبة أعواد الثقاب ...

في زاوية الفناء بئر زربت جوانبها وقاية من السقوط، نقيق الضفادع ينبعث من جنبات الميدة المحجوز ماؤها لأغراض الغسيل، حشائش الخبيز والقميلة والنعناع نامية على ظهر المساحات البليلة..

عند مدخل الفناء شجرة الحناء ومن الوسط تسلقت عريشة العنب الدعامات واتخذت جزءا من أسقف الغرف مهدا مريحا لاستراحة عناقيدها ...

رائحة زكيه تتضوّع في الفناء، تلازم جسدي وملابسي أينما حللت، أرضية الفناء ترابية، أصر جدي على استمرار عذريتها، رفض

بشدة أن يطلي ظهرها بالملاط، كنت أتأمل الخطوط التي تتركها العراجين بعد الكنس وأهتف في سري : كم أنت جميلة ... تشبهين جدائل بنت عمي وهى تنوخ برأسها في عرس جيراننا الطيبين .. كنت يافعاً آنذاك، ألازم جدي كمريد مطيع، ملبياً كافة رغباته الكثيرة الشبيهة برغبات طفل مدلل ! .. رن جرس الهاتف المحمول

- ألو ..

- ألو ..

- افتح على موقع www .... إلخ ..

- شنو فيه ..

- تو تعرف ... مباراة ... الدم فيها إلى الركبة ..

- في الدوري الإيطالى ..

- افتح وتعرف ... (وأطلق ضحكة) .

- وفتحت ..

- ما هذا ؟ والله أنت فاضي .

وأنهيت المكالمة بلباقة عصرية جدا.

عدت إلى فناء البيت، هذا الفناء تحول إلى زريبة مواشي، والبئر ردمتها تراكمات القمامة على مر السنين، وعريشة العنب

جفت ما عادت تثمر في غياب سقاتها ... آخ .. لا تسألني عن الضفادع التي تنق وتزغرد وتقفز ورائي وكأنها تتعقبني ... شجرة الحناء مازالت صامدة، مورقة طول العام، أوراقها المتساقطة توشم التراب بطيف أخضر خفيف ... أحضر لجدى طاسة الشاي، قبل دخول الفناء أرشف من رغوتها يتفطن بفراسته لذلك، يأمرني بإعادتها إلى النساء وإرغائها من جديد، كان يهددني بإيقاف حكاياته عن الطليان وبر الحبش والمصوعية إن كررت قرصنتي الخفيفة تلك، كنت أكرر لذتي باندفاع وجدي لا يعاقبني بإيقاف عجلة تاريخه المشوقة، أكثر ما عاقبني به هو صراخه : أنت ولد عنيد.. رأسك كاسح ... ولكنه لم يش بي لأبى الذي كان سيمزقني إربا، كانت الوشاية لدى جدي من الكبائر الخسيسة .. جدا .. جدا .. دائما يبصق من أعماقه مشمئزا من ذكرها لاعناً فاعليها، متمتماً سامحنا يا سيدي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا !

أعصر ذاكرتي لتقطر دفئا على ضباب نسياني، وتقطر .. وتقطر .. ويطل .. ها هو أخي .. وهو يسف التراب ثم يبكي بنغمة تختلف عن نغمات بكائه العادي .. تلقمه أمي ثديها فيزداد بكاءً ويتكرر الأمر مرارا حتى اشتكت أمره لجدي الذي اتسعت ابتسامته كفناء بيتنا .. وقبل أن ينطق تأملنا ملياً ثم همس لأمي : أرضعيه دون أن تمسحي فمه !

فوزان

كان الرحم دافئا طريا .. رغم هواجس الشعور بالذنب والخوف من المجهول .. كان رافضا لكل عقاقير الوأد المبكر.. شجاعا لم يسمح بأي عملية لفسخ البذرة المستجيرة به .. مرت الأيام .. وعاشت الأم – اللا معترف بأمومتها – لحظات رهيبة .. كانت محتاجة لجرّة قلم مباركة .. تدارك عقلاني .. ستر إنساني .. لكن اللعنة على العادات والتقاليد وجمّ اللعنة على الرجولة الزائفة المغرورة .. رجولة البطاقة الشخصية .. بكت .. دعت ربها .. تابت أكثر من مرّة .. ندمت على هفوة جسدها المنساق .. لكنها تماسكت .. وصبرت ككل أنثى منصاعة إلى فطرة الأزل .. فاجأها المخاض .. لم تجد نخلة لتهزّها .. مارضيت هزّ الأعجاز الخاوية من المروءة.. كل النخل مُملك .. موضوعة عليه الأيدي .. هزّت نخلة الأمل .. هزهزتها بعنف .. سقطت ثمرة أحشائها .. تعفرت بالتراب .. لملمتها .. دثرتها بطرف ثوبها .. قبّلتها بكل ما تملك من حنو.. لكنها نزفت حزنا وألما وخيبة .. فأسلمت الروح دون إرادة منها ..

أكثر من يتألم في هذا الكون هنّ المربيات المشرفات على أطفال الملاجيء .. هنّ اللواتى يستقبلن التساؤلات البكر المقطعة للاكباد .. أين ماما .. ؟ أين بابا ..؟ لماذا أمهاتنا تتغير في الصباح والمساء ؟! لماذا يا ماما إخوتنا هنا كثيرون .. ؟! وأسرّتنا فوق بعض؟!

كانت المربيات الحنونات يتألمن بشدة ويمُتن في اليوم ألاف المرات ..

كبرت فوزان .. واكتسبت خبرات كثيرة .. أفهمتها الحياة قصتها الصادمة .. وكيف جاءت إلى هذا الوجود ؟ .. تألمت للفقد والحرمان والتشظي .. صارت تبحث عن والديها.. تتأمل عيون المارة.. تتجول في الأسواق السوداء .. وبين سماسرة السيارات ونخاسي التبر واللحم والفحم والملح والنار والمبادئ .. تبحث عن أبيها .. هي تعرف أنها لن تجده في بساتين الورود أو دور العبادة أو الفن .. أما أمّها فقد ملّت البحث عنها في المستشفيات والمآتم والأفراح دون جدوى .. وذات يوم صلّت الجمعة في المسجد العتيق.. كانت هناك جنازة لرضيعة .. نظرت بحنان إلى جثمانها الطاهر.. فأحسّت بما لا عين رأت ولا أذن سمعت .. كانت الزهور فوق نعشها تخاطبها بلغة الأريج .. أمك يا فوزان موجودة حيث ستُوارى هذه الرضيعة .. أما أبوك فلا يستحق أنْ تبحثي عنه .. إنّه يراك الآن .. إنّه مُندس في هذا الزحام لتمثيل دور المشيّع الحزين ..

صحبتهم فوزان إلى المقبرة .. كانت تصدح بالشهادتين .. لا إله

الا الله .. محمد رسول الله .. وتبكي بحرقة كبكاء أمها يوم حملتها وولدتها .. وعندما واروها التراب .. وعاد المشيّعون إلى بيوتهم .. عادت معهم .. استغربت في أمرهم .. يذهبون مجتمعين ويعودون متفرقين !!

وهم عائدون ما عادت تسمع لا إله إلا الله .. محمد رسول الله.. كانوا يدخلون بيوتهم ويتربسونها في وجه نظراتها الآملة .. أثناء قفل الأبواب كانت تغمر أنفها رائحة الكسكسي باللحم الوطني .. فتستنشق الرائحة بعمق أخّاذ وتتساءل ولعابها يسيل : أليس الأقربون أولى بالمعروف .. لكن آه .. أين هو المعروف بس ؟!!

كانوا قُساة .. عُتاة .. لم يسمحْ لها أي منهم حتى بالجلوس على المصطبة في ظل عريشة البيت .. أكثرهم اعتبرها غجرية لقيطة تحترف النشل والتسول .. رغم أنّ ملامحها تشبههم إلى حد التطابق ..

طفقت تتمشى في الهجير .. و داخلها يموج بالأسئلة .. أين سأذهب يا ربي ..؟! .. نعم أين ؟!! ..أنا جائعة .. جائعة .. ظامئة .. خائفة .. خنقتها العبرة .. انفجرت بالبكاء .. لم تعد تبصر ما حولها .. انتابها صداع قاس .. ودوار مُغيّب .. فقدت كوابحها .. أخذت تجري وتقفز بعشوائية كفرخ طير استشعر ثعبان ..

في إحدى المنعطفات كانت سيارة عاهرة تقدم لها رصاصة الرحمة على طبق من ارتطام ..

.. وجه أختاره ووجه أخسره ..

بينما الصواريخ والقنابل تدكّ بغداد.. أجدني لابدا في مقهى لبدة .. أرشف القهوة .. مُتجرعا نكهة الحزن العميق .. أتسوَّغ بمقولة (ما باليد حيلة) .. فأنا إنسان بسيط .. عادي .. لا حول لي ولا منصب.. صُفَيْر على شمال الهامش ..

أقصى استطاعتي هو أن أتظاهر عندما يقولون لي تظاهر وإلا خصمنا اليوم ..! أقذف وابل كلماتي المُعلّبة والمُلعّبة .. متوعدا بوش وشارون والذيل بلير .. .. وقد أتجرأ بعد تلثيم وجهي وإحدى عيني فأطعن بيارق أمريكا وبريطانيا .. وأحرق مخدة يتوسد وجهها بوش .. ثم أدوسها بنعلي المرتق .. لأصل ذروة هياجاني فأتصارخ بهستيرية: u down.. donw.. a s

ما تتوق إليه نفسي حقيقة ليس التظاهر .. فبعد استشهاد القديسة راشيل تحت جنزير جرّافة صهيونية .. تباينت في ذهني الرؤى والمفاهيم .. رأيت أنّ للحق مريدين .. وللمبادئ أنصاراً .. أتوق

للدفاع عن العراق.. عبر إليه عبر الشام .. أعي جيدا أنه بعد الحرب سأعجز عن العودة إلى وطني.. وربما يتنكّر العراق لي .. ولمصلحته الوطنية يلفظني خارجه .. كما حدث بالضبط للمتطوعين في أفغانستان والبوسنة لأتبهذل في بلاد الله الضائقة بي .. أفرّ مذعورا من وكر إلى جحر.. لا مبدأ يأويني سوى الموت .. وفي النهاية أعتقل وأصنّف إرهابيا درجة أولى .. يتزلف بي الأذناب إلى قاعدة غوانتانامو.. أو أباع رقيقا إلى وطني في صفقة مشبوهة موسوما بالبغداديين العرب .. على وزن الأفغان العرب .. ولو كان قدري حلوا يصادف زمن تسليمي عيد وطني .. أو طفرة دعاية لنصرة حقوق الإنسان فسُيفرج عني .. لتزغرد أمي ويتفحّل أبي وتعانقني خطيبتي عناقا صمغيا .. لكن يا عزيزي ستوضع على غضون جبهتي منارة من علائم الاستفهام والتعجب .. فأي زوبعة أو جعجعة تحدث في البلد يُزجّ بي إلى جُبّ التحقيق .. وقد يُلبسني أحد المحققين جُبّة لا أزرار لها ..

متيقن إنْ تطوعت سأنتصرْ.. وقد أكون سببا مباشرا في اندحار الغزاة .. ستفرحُ الأمة بي .. وأُمنح رتبة عسكرية ودكتوراة فخرية .. وزوجة عراقية تُمتّعني بأشعار السّياب ومواويل ناظم الغزالي وتُعدّ لي تشريبا شهيا وطبقا لذيذا من مسكوف دجلة على لظى الحطب المعطّر.

أرشف القهوة الباردة المرّة ..أرشفها بصحبة الصواريخ

والقنابل الراشفة أحلام التواريخ. الداكّة بغداد العالم .. عاصمة الخلافة .. دار حكمتنا .. بابلنا .. آشورنا .. أرض الأنهار الوالدة للمداد والدم والمطر .. البشر حطب الدنيا .. الطين أيضا .. صراخ الأطفال .. عويل النسوة .. زفرات الهمم .. رجاءات المروءة .. آذان الجامع يشقق طريقه وسط البارود رائدا السماء .. رنين الكنائس تصحبه أنوار الشمعدانات .. المشهد جليل .. أليم .. مؤتّر .. العصافير تسعل حد البكاء .. خفقاتها ارتبكت .. كل جناح يخفق لوحده .. نهارها دخان.. ليلها دخان .. فجرها دخان .. ألسنتها الرهيفة تدلّت من المناقير.. حويصلاتها تتقيأ ما ظنته امتلاء .. لا تسألوني عن الأزهار المصهورة لغير العطر.. أو الفراشات التي أخطأت شموعها فترمّدت في شبه لمحة..

إنْ كان للجنون قوة فها آنذا أراها ..

إنْ كان للقوة جنون فها آنذا أراه ..

إنْ كان للظلم جحيم فها هو يحرقني ..

إنْ كانت القلوب تقاتل فخذوا قلبي ..

عمّروا بنادقكم بدقاته .. زيّتوها بدمه ..

تخندقوا داخل طيّاته .. تنفسوه إنْ فاجأكم السام أو الوباء ..

روحي .. هل أتطوّع ؟

!! ....

حسنا سأقترع ..

ناوليني قرشا شفافا..

قرشا بوجهين ..

وجهاً أختاره ووجهاً أخسره ..

عندما رميت القرش في السماء لم يسقط ..

هدهد فقد رجليه اتخذه عجلة ..!

أيتها السماء ..

هل أتطوّع ؟ ..

أم أنأى إلى بعيد غائم ...

ماذا أفعل أيتها الأمّـــارة ..؟!

مُـريني ...

مُـــريني أيتها العاهرة الحرون ..

(إشمعنى) الكل يأمر إلاّ أنت ؟؟!!

روائـــح وقرائـــح

هكـذا هـي الأيـام خـبّـاءة. هكـذا هـو الـزمن سـافر. إبصـاري لا تستقبل النتوءات.. والابتسامات غارقة في شفافية الانبساط.. هكذا هي الأيام خبّاءة..

فمن أين لي بيوم يبسط كفيه.. لكن قد أرى الفحم فيهما.. ولا أرى الخطوط فأقرأ ما ظهر في الكف والذي بطن يظل مخبوءا إلى ما شاء الله. سآخذ الفحم من الكفين.. وأخربش أسطورتي.. وأحرقه ليصرعني البرد.. لأنني أخطأت السبورة العذراء.. ما حولي متاهة متشابكة.. مفاتيح ذاتي ضيعّتها الدروب.. والكبرياء كسرت عكاكيز قيادي.. يكفيها أن تتلمس عن قرب. كل قرب لو أمعنا النظر مخبوء. عيناك جميلتان.. بدراك أضوء.. قلبك أجمل.. آه ما أبعد روحك.. وما أتعس مقاييسي الشبيهة بأيام.. تسرع ولا تتلكأ.. أحب تقلباتها على أسفدة الوجود.

هكذا هي الأيام.

لا نـدري مـا تـدسّ لـنـا.. عـنـدمـا كـبرت لم يمنحـنـي أبـي شـيئاً. أوصـاني: إن وجدت الـتمر في القمامـة كلـه.. وجـدت القمامـة ولم أجـد التمر.. بعد حين لم أجد القمامة.. ووجدت تمراً (بلاستيكياً) سككت منه خاتماً.. كلما لمسته ضاق على إصبعي.. بترت إصبعي.. التقفه كلب .. نبح .. ثم ابتعد إلى مكان نظيف .. هل أصلنا كلب.. أم قرد. أم بني آدم !!

أدري.. وهكذا هي الدراية.. وهكذا هي الأيام. وهكذا هو كل شيء.

فتحت عيني في شمس الشتاء.. فأدمعت الشمس.. ورشفت رقية من رذاذ الندى.. فتحت عيني في شمس الصيف. فأرعفت الشمس ورشفت رقية من رذاذ الضباب.. صرت أعمى فقهقهت الشمس بما يشبه الحقيقة.

صرت أطرش فسرقت الشمس الرعد.

وعندما اشتكى الرعد لم يجد من يسمعه.

هل يعني هذا أن أيامه صامته خبّاءة.

الزمن عجيب.. والسواد كساه بظلامه.. في عالم السواد النور ظلام.. وإذ ندخله نفضل أن نكون مغمضين.. داخل إغماضاتنا سواد منير.. سواد وسيم.. داخل إغماضاتنا حلاوة لا نحتملها.. نفتح عيوننا فنستطيء بغير نورنا.. غير نورنا عتم مضيء.. تؤلنا حلاكته فنغمض لنبكي.. الدموع بول اغماضاتنا.. خدودنا قذرة مهما نغسل فسيظل المصعّر مكباً.

عندما وجدتْ مبتغاي تمرة على خدي غسلتُها لها بدموعي. كنت خائفاً أن تشمئز. لكن لاكتها بلذة.. وإذا انتهت قبّلتها وبحثت على خدها عن أي مُلاكة.. لم أجد تمرة. وجدت نوى.. لم أتجرأ على السؤال ومضيت جائعاً ظامئاً وأزل لساني يطرق إسماعاتي القادمة.. لو وجدت التمر في القمامة كله.. كله..

في منتصف التلاشي لحقتني قائلة: أمن أجل تمرة تتركني..؟

كانت غير متوتة.. كحواء بعد تفاحة.. خذ حلمتي.. إرضع ما طاب لك.. كانت أمي.. كانت لعنتي.. كانت كل الإناث اللواتي أحترمهن مقهوراً أسفاً..

الدموع بول.. كل مفروز بول.. فلنحتفظ بإفرازاتنا ولا نلوث.

المطر بول..

كل ماء بول..

البحر أيضاً بول..

السماء برمتها كذلك.. الجميل أنه (بول عن بول يفرق)..

داخل المراحيض عالم نحن مطره..

داخل البحار حيتان تنتظرنا..

داخل أنفسنا جنة مضيئة تائهة..

أين بوصلتنا!!.. بوصلتنا ناضبة من الزئبق.

عقاربها تتعنن كلما وجّهت إلى الشمال..

ما سر الزئبق..

ما سر البول الأسود هذا!

هل هو مني الشيطان،!!

حجر الزهر

في هذا العالم العجيب الغريب، الذي حددنا أبعاده، وقسمناه رقعا وأحيازا، ووزعنا مخلوقاته جميعها على أوراق اللعب، وطلبنا من الأقدار تمزيقها وتفريطها من مسبحة الوجود ...

في هذا العالم العجيب الغريب بلدان كثيرة .. في كل بلاد (كوتشينة) مطلوب تمزيقها .. الصف طويل .. و (كوتشينة) النار تلتهم ذيله بنهم .. تلتهم ولا تشبع فيما رماد فضلاتها تودعه في ظلمات الظلام .

في هذا العالم العجيب الغريب وجدتني صغيرا .. أتأمل اللاعبين الكبار .. أجلس حذاهم .. أتابع حركاتهم وسكناتهم .. سرعان ما تعلمت .. عرفت قيمة كل ورقة ودلالاتها .. أوراق (الكوتشينة) كأوراق العملة .. منها التي تساوي ومنها التي لا تقضي شيئا .. الجامع بينهما أنهما قابلتان للحرق .. المادي والمعنوي .. أتقنت اللعبة جيدا .. أجدتها ثلاثة مع ثلاثة .. اثنان مع اثنان .. واحد مع

واحد .. بل تعلمت كيف ألعبها في الأحلام .. وكيف ألعبها مع ذات نفسي .. لعبت تنويعاتها (اسكمبيل .. اشكبّا .. روميتو .. بصرى .. برنجي .. الخ) .. اللعبة التي شدّتني لا أعرف اسمها .. لعبة أجعل فيها للورقة ضلفتين بثنيها طوليا بالتساوي .. ومن ثمّ يبدأ اللعب بإيقاف كل الأوراق صفا واحدا .. ورقة خلف ورقة بمسافة تسمح لرأس الخلفية ملامسة ظهر الأمامية إبان السقوط .. ويحل الانهيار .. كل ورقة تلمس التي أمامها حالما يُلمس خلفها .. تداع طويل يمنحني لوحة رائعة .. لا يرمش لي جفن حتى تنكبّ ورقة المقدمة على وجهها .

أجمع كل الأوراق مجددا .. أوقفها صفا طويلا متعرجا .. قل على هيئة ثعبان أو حرف لاتيني أو عربي غير منقوط .. وأدفع بإصبعي آخر ورقة لتنطح التي أمامها .. وكل أمام يقع على الذي أمامه .. وأتسلى بهذا الانهيار السقطوي .. وأبتسم لانبطاح كل الصف.. وبحذر أقترب من رقم واحد الساقطة عليه كل الأوراق .. أزلق إصبعي أسفله بين ضلفتيه وأرفع برفق فيرفع التي خلفه ويرتفع الصف رويدا رويدا .. وفي أول منعرج ينصرم .

ويستمر اللعب كاستمرار الحياة والموت .. كاستمرار الخَلق .. وتبلى سرائر (الكوتشينة) من تكرار اللعب فأرميها سليمة في القمامة .. أو أمزّقها أو أحرقها أو أعطيها لأطفال تصغرني فيلعبون بها لعبة الصور والحجر المسطّح .. يفردون ضلفاتها .. يغرسونها في

كوم التراب المواجه .. يبتعدون مسافة متفق عليها .. يرمون ناحيتها الحجر زاحفا فيجرف بعضا منها أو كلها .. الفائز من يُبطّح أوراقا أكثر .. خلاصة أنني لا ألعب بكوتشينة بالية .. أرميها وأشتري غيرها.. أشتري بلدا بمالي أو أسرق بلدا لا فرق .. أو (أتبلطج) لأستحوذ على بلاد .. المهم أنْ يكون لي بلدي .. أصفّه وأسقطه .. وورقتي الأمامية أسندها بإصبعي فلا تسقطها الأوراق الخلفية ..

إصبعي رشيق ألبسه أثمن الخواتم وأكرم الدبل وأملّكه أقوى الرقاب والأزرار والبطم .. إصبعي جميل أحبه .. أقدّسه .. هو كل شيء عندي .. يُمكن ورقتي من الوقوف الدائم .. يضغط على زناد الاستناد فلا تسقط .. إصبعي شامخ به ظفر .. ظفر حاد مشذّب .. أخربش وأهرش به تجاعيد الصور .. الورقة السائرة على مزاجي والمحلقة في فلكي أصقلها به جيدا .. والمغضوب عليها أقشرها وأمسخها وأكيّفها كما أريد .. ورقة بها تسعة أسدّسها بتقشير ثلاثة أرقام .. الشيخ لا يعجبني أقشّر لحيته وشنبه .. أجعله بنتا أو شابا .. أنا حرّ في (كوتشينتي) حتى ورقة (الجوكر) أطمسها .. أفقدها قيمتها المميّزة .. أضعها في جرابي كي لا يسحبها أي كان .. أخرجها متى أريد .. أخفيها متى ما حلى لي.. وإن وخزت قلبي أو أحسست بتآمرها مزّقتها إربا وأحضرت من سوق الغفلات (جوكرة) نائمة بدلا عنها.. جوكرة فك علوي .. لا تصكك ولا تحكك كتيس في زمن العولمة .. أنا لي ظفري وإصبعي .. عصاي المتمركزة في معصمي .. أصكك و أحكك

وأسمل بها .. وأفعل بها أي مآرب تُبهجني .. أضعها في صدغي تجعلني مُفكرا .. في شنبي تجعلني ناقدا .. في أنفي متقززا .. في فمي طفلا .. في عيني قنّاصا .. في أذني محايدا .. في خدّي مغازلا .. وفي إستي صامتا على خيري وشرّي .

وأستمر في اللعب إلى حين يداهم الفالج إصبعي .. فأستعين بعصا تُربط إلى كتفي وإن داهم الفالج كتفي أيضا أستخدم إصبع رجلي .. بل رجلي كاملة .. أركل بها بلدي .. فأحسّهم سعداء بالركل .. أكثرهم يستلذّون فأتمادى في ركلي لهم .. الفالح من يحقق لذة بلده .. اترك لعبة (الكوتشينة) وأجعلهم كورا .. أركلها صباحا ومساءا .. أنططها بكل جزء فيّ .. هم سعداء وأنا أسعد .. الناس كلها استحالت كورا .. الاقتصاد ازدهر .. ما عدت أستورد لهم أحذية وجوارب وقفازات وملابس داخلية وخارجية أو أربطة أعناق .. كيس خيش كاف للكساء .. لا داعي لأنْ أربطهم .. كل فرد يربط كيسه من الداخل.. يُسعد في ظلامه الداخلي .. يستلذ باستقبال الركلة التي لا يعرف مصدرها .. تأتيه على ظهره فيعتبرها تدليكة .. على رأسه يعتبرها تمسيحة .. على الكتف تربيتة .. وعلى عظمة الساق مُداعبة .. وعلى الحوض فكشفا تناسليا .

وعندما يداهم الفالج قدمي .. أركلهم بالذكرى .. بالصوت .. بالصدى .. أصرخ فيهم .. أنت مركول الآن على مؤخرتك فيتقي المكيّس براحته على مؤخرته ويعوّي .

أنا سعيد .. لساني مازال يلعب .. يفعل ذلك لاعبو كرة القدم كبار السن .. فأرجلهم لا تسعفهم .. ومجهودهم البدني تضاءل .. وموهبتهم عليها العوض .. لا يبقى لهم سوى اللعب بألسنتهم .. يحركون اللاعبين الصغار بصرخاتهم ليصبّوا مجهوداتهم الطازجة في خاناتهم البور.

ولابد ممن ليس منه بد .. فاللسان أيضا يداهمه الفالج .. أسماع الزمن ما عادت تطيقه .. ويظل رديد الصدى مدة .. ثم يهمد وتبقى الولولات في أكياسها .. الركل توقف .. والصوت توقف .. والصدى توقف .. والحياة هل تستمر داخل كيس ؟ .. أول الخارجين من الأكياس يبدأ في ركل الآخرين مقلدا الصوت المنقرض مؤسسا بلادا جديدة للركيل .. وتدوم هذه اللعبة .. ويدوم الحبر في الاندلاق .. والنار في التهام الصفوف .. كعادتها دائما تبدأ بالذيول وتنتهي بالرؤوس .. وها نحن مذ وعينا نلعب (كوتشينة) واحدة ذات أربعة أوسام (ديناري .. كبي .. اصباطا .. بستون) والنار تلعب بأوسام لا حصر لها .. تغيّر الوجوه المستهدفة .. كوتشينة خالية مؤطرة .. ترسم داخلها من تريد .. تُمزّقه متى أرادت .. تحرقه إن حاول التجعد بين أصابعها.. تصنع البيادق وتدكّها .. قوة تستهلك وقودها وتندم على ضرطاتها المتسربة ..

ونحن اللاعبين ببعضنا .. من يلعب بنا ؟ .. من يضعنا جميعا في أوراق واحدة ؟ ..

المـوت يمزّقـنـا .. المـيلاد يرتّـقـنـا .. والمجهـول يؤرّقـنـا .. والكـور السابحة تحملنا .. تغرق بنا .. وتفجّرنا بعد نعاس عتيم .

في هذه الوهلة سألعب لعبة غير (الكوتشينة) سألعب الشطرنج ..

هل سأختار القطع البيضاء أم السوداء ..

القطع البيضاء مواطئها سوداء

القطع السوداء مواطئها بيضاء

آه يا حجر الزهر أي جحيم بصقتنا فيه ..!!

نقر

- 1 -

في ضحى إحدى الجمع، حطت بنا الطائرة في مطار اسطمبول، وحطت في مداركي الكثير من الضبابات الكثيفة، والتي أخذت في الاتضاح مع كل دقيقة قضيتها في بر الأغوات والباشوات والحرملك وأيضا خانقي الماء عساكر الدونمة !

- 2 -

الجو بارد وماء البحر بلون الرصاص .. والسماء تعتصر نفسها ناثرة رذاذاً متقطعا ... أتطلع عبر نافذة (التاكسي) ... نوارس تطير ... وتحط ... وأحيانا تغوص برأسها وتنتشل شيئاً ما ... عشاق متأبطون أذرع بعض .. أنظر أماماً وأزفر زفرة من البخار الشتوي .. يمسح السائق الزجاج الذي أمامنا بمنديل عليه شعار نادى جلتا سراى .. وتستمر الماسحات في جرف الرذاذ الأمل في لم الشتات .

- 3 -

أنـزل في (بـا يـزيد) ... أضـع حقيبـتى في خـان ... وأخـرج إلى سـاحة (أيـا صـوفيا) . الازدحـام شـديد والجـامع أروقـته فائضـة بالمصـلين والخطيـب بتركيـته المطعمـة بعربـية الآيـات الكـريمة والأحاديـث الشـريفة يقـذف حـروفه في الآذان المشـرعة ... والبولـيس يحـيط بالمكـان .. مدرعـات صـغيرة ... شـاحنات لإطفـاء الحمـاس .. كـلاب مدربـة ... خـيول مطهمـة ممـتطاة ... يطلـق الخطيـب السلام ... ويفـض الـتجمع بسـلام .. ويواصـل السـواح الـتقاط متعـتهم والحمـام حـبوبه .. وتـيرة الصـخب تـرتفع .. أجـراس همهمـات ... هديـل (كوكتيل) من الأصوات ...

مددت يـدي فـارغة مـن القصـب ... لسـت متسولا وإلا قلـت عن الحمامـة الـتـي حطـت عليهـا : وهبـتـنى نفسـهـا ... شـكوتهـا بـنظـرة رغـم أننـي لسـت أسيرا ... سـألتها بلغـة الهديل : هـل لديـنا أجـداد منفـيون هنـا ؟ لم تجب ..

هـزت رأسـها .. نقـرت أرجـلها ... لم أفهـم شـئيا ... كـررت السؤال... طـارت ... واختلطت بزحـام الحمـام .. اشـتريت كـوب قصـب.. أفرغـته في راحـتـي .. ومددتهـا ... ظهـرها لـلأرض وجههـا المملـوء للسمـاء... حطـت فيهـا حمـامـة ... لا أدري هـل هـي مغـادرتـي أم حمـامـة غيرهـا، لم أقطـع لـذة طعـامهـا بالسـؤال .. اسـتغرقـت في تأمـلهـا وهـي تـزدرد الحـبوب دون مـاء .. مسـدت براحـتـي اليسـرى علـي ظهـرها !...

فاضطربت وتخلخلت حتى تساقطت من راحتي معظم الحبيبات ... أوقفت تمسيدي واستأنفنا .. هي نقرها ... وأنا تأملي حتى شبعنا ...

كل على طريقته .. قبل أن تهم بالطيران ... التقت نظراتنا .... وانفجر السؤال : هل لدينا أجداد منفيون في الخازوق العالي ؟!

تراخي تحفزها للطيران ... نفشت ريشها ... فتحت منقارها .. ملأته برذاذ السماء .. ثم طارت مشيرة لي أن أتبعها، حاولت التقدم وراءها ... ولكن اضطررت أن أتوقف ريثما يتم الحمام المتجمع حول إقدامي التهام ما تساقط من حبيبات ... لم أخش أن تضيع الحمامة الدليل .. لأنّ تمسيدتي قد زجلتها ..

من مذكرات شجرة [1]

مهداة إلى عمتي الدائمة حواء

لا أستطيع أنْ أبدأ منذ الأزل .. فالأزل مازال مجهولاً .. رغم كل ما قيل عنه من نظريات نقلية أو عقلية ؟ ولكني سأبدأ من يوم كنت جزءاً من شجرة باسقة غرستها الرياح ذات فجر في جوف جبل أشم .

الأمطار تغسلني شتاء والصيف يجفف كل ما يؤذيني من رطوبة وبرد ؟ أسعد بزقزقة العصافير وثغاء المواشي وعواء الذئاب ؟ كنا نصنع حفيفاً شجياً وقت الغروب .. أحياناً أسترق السمع لأناس يجلسون متوسدين أقدام أمي أنظر إليهم وهم يتهامسون في هدوء كأنهم يدبرون مكيدة ؟ تهتز أمي مع الرياح فنرقص معها ولكنها سرعان ما تتوقف وتبكي بدمع من صمغ خاثر .

---

[1] أول نص كتبته ونشر في جريدة الجماهيرية بتاريخ 18-7-1999.

ذات صباح سمعنا دوياً وهرجاً ومرجاً كأنها القيامة قامت وفجأة انهالت على أقدام وبطن أمي مناشير مشرشرة من المعدن وفؤوس حادة كلسان يتكلم ! وطوقت رقابنا حبالُ تجذبها بغال قوية ونداء بشع يصرخ (بهيلا هُب) الطعنات تأتي من كل حدب وصوب، لا تفرق بين جذع أو غصن أو ورقة .. صرخت أمي (وامعتصماه) تناثرت نشارات دموعها وبدأ عنقها يصغر حتى خرّ تماماً لم ينجدها أحد، كانت الزراعة نائمة والمرشد يتفرج على مباراة في كرة الصدر، أما شرطة النبات فلديهم (زردة) مع مدرسة البنات في بطن الوادي ..

اجتثت أمي المسكينة .. لم يرحموا أوراقها التي تخرّفت قبل الخريف ولا ثمارها التي أطعمت الجائعين .. اقتادها نخاسو الفحم، جرجروها على الصخر.. بكى الظل لفراقها وشعر أنه هو الذي اجتث؟ في الماضي كان بكاؤه في منتصف النهار فقط ! أما الآن فسيبكي هذا الظل الشجرة منذ أنْ كانت شتلة وبدأت تكبر وهو معها؟ كان يفارقها في منتصف النهار فقط أما باقي الوقت فدائماً معها، أحيانا تسأل الشجرة الظل لماذا أنت أناني ؟ تجعلني دائماً درعاً واقية لك من أشعة الشمس، أحبّ ظلك الليلي لأنني لا أتألم من الحر، ولكن ظل النهار مؤلم وتصرخ فيه مازحة : يا أناني .. يبتسم لها الظل قائلاً:

لن يحبك أحد أكثر مني والظل الذي نكونه أنا وأنت ليس

لمصلحتنا وإنما لمصلحة الغير، الغير المحتاج لهذا الظل، الأرض التي لا تستطيع أنْ تحتمل الحرارة طويلاً، الحيوانات الهاربة من القيظ، عابري السبيل، ألا تريني أقصر وأطول وأدور ؟ لا أعرف أين أقسّم نفسي، المهم أنا حزين جداً لفراقك .

قام نخاسو الفحم بجرّنا بواسطة دواب قوية، دفنونا في خندق مستعر، كان سجناً مظلماً لا هواء فيه، كوة واحدة تركوها، ليس من أجل إنعاشنا ولكن من أجل أنْ لا تخب النار، أهالوا علينا التراب، حتى دُفنا أحياءا، أخذت أموت رويداً في هدوء .

أحياناً أنام فأحلم بنار إبراهيم عليه السلام ؟ أحلم ببرد وسلام.. ولكن أين كوني؟ أين ؟ أشعر أن لحمي وعظامي وعصارتي تحترق .. ولكن روحي لا يحرقها اللهب .. قد تحرقها دمعة أو كلمة أو ابتسامة صادقة .. ولكن اللهب النار الأتون .. لا .. لا .. لا .. ثم أستيقظ لاستقبال مزيد من الكي والاختناق والتفحم .

بعد عدة أيام تفحّمتُ، أصبحتُ لا أدري ما انتظره أو بالأحرى ما ينتظرني .

هل هناك نار أخرى بعد التفحم ؟ هل ستُحرق روحي أيضاً ؟ كيف ؟ ومن الذي سيحرقها ؟ وأين أمي ؟ أشعر أنّ أمي مازالت في الأرض، مازالت بذرة ..

بينما كانت الشمس تشرق في الصباح الباكر، اجتمع حول

خندقنا المردوم جمع من الناس، أزاحوا عنا ثقل التراب .. عُبئنا في أكياس كبيرة، كل كيس به خط عريض في المنتصف، وتفوح منه رائحة شعير وفئران .. أحكموا غلق الكيس بسلك معدني فأصبح كسجن بقضبان .. جاء قدري بأنْ أكون في مقدمة الكيس لأنّ هيكلي مصقول ومكتنز.. اعتبرتُ وجه القبول .. جسّني كثير من المشترين ؟

كنت أستر كل القطع الصغيرة النحيلة الهشة التي تملأ أسفل الكيس، والمنتصف وفوق المنتصف أيضاً .. شعرتُ بالضيق وبالتفاهة، تذكرت صناديق الطماطم والبطاطس والفواكه في سوق الفندق البلدي .. أيقنت أنني أشارك في عملية غش وتدليس فتمنيتُ لنفسي أنْ أحرق .. أنْ أفتت أكثر من مرّة .. لم آسف لحالي الذي أنا فيه .. تنقلت من سوق إلى سوق ومن جرار إلى شاحنة، تمّ بيعي عدّة مرات وفي كل مرّة كانوا يتأكدون من قضبان السلك وكانوا يعيدون تثبيتي في البوابة، لقد شنقوا إحدى نتوءاتي على وضع يجعل مؤخرتي بارزة للخارج، أحياناً يكون الكيس نائماً على رأسه وأحياناً يكون شامخاً إلى أعلى، وذات مرّة حشرتُ في ذيل شاحنة وصففوا عليّ كل أكياس الحثالة، آخر المطاف اشتراني رجل طويل وسمين يلبس (فرملة) تفوح منه رائحة العرق والتبغ و(البارزيتي) و (البوفاس) أيضاً، انتشلني بخفّة من الأرض، كان نتوئي قد ابتعد عن سلك المعدن من جرّاء فوضى الرفع، أقفل باب السيارة الخلفي ومضى إلى كرسي القيادة .

انطلق مبتهجاً بسيارته، كنت أشتمّ رائحة دخان ليست كالتي نتجت عن تفحمنا، أطلقتُ العنان للسعال وتزحزحتُ من الكيس قليلاً لأفسح الطريق لمناخيري التي أخذت تتسع من أجل امتصاص أكبر كمية من الهواء النقي، وأخيراً توقفت السيارة أمام ساحة كبيرة، إنه سوق الخضراوات الفندق البلدي، نزل وغاب وعاد مهلل الأسارير في حضنه كيس مملوء بأكواز الذرة الطازجة .

تمتمت في نفسي، عليك اللعنة يا أبا فرملة .. وضع الكيس قرب كيسي، عبق الجو برائحة الذرة، لمحت حبيبة تبكي، كان غطاؤها الأخضر الهافت قد أزيح لمعرفة الجودة، نظرت إليها فزاد نشيجها حتى ابتل الليف الرهيف الذي يحيطها، همستُ في أذني أرجو أن لا تحرقيني أنت بالذات، شعرت أنْ روحي ستموت، أدار أبو فرملة المحرك وانطلق هارباً بالغنيمة .. كانت سرعته عاقلة وبين الحين والآخر ينظر إلى الوراء ويغني فحم .. ذرة .. فحم .. ذرة ..

أوقف السيارة، أخرج المفتاح من ثقب المقود ورفع مقبض فرامل اليد، قلد الصوت الناجم عن رفع المقبض وتذكر كيف يسمع مثل هذا الصوت عندما يداعب مشطه بإبهامه الغليظ، تلقته ابنته، خطفت كيس الذرة بينما عانق هو كيس الفحم واندفع به إلى داخل البيت، اقترب من برميل كبير يقبع في ركن منزو تحت السلالم، قبل دخول البيت كنت قد نظرت إلى السماء لآخر مرة بعدها أصبحت أنظر إلى السقف .. ابتسمت وقلت سانكبّ أولاً في البرميل وأكون في

القاع، سأعيش في الخيال وربما لا أحرق وربما يكون الجو دافئا ولا يحتاج إليّ ؟ .. وربما المدافئ ترخص ؟ والشتاء لا يجيء ..

وأنا في دوامة "الربما" توقف أبو فرملة.. أوقف الكيس على قاعه، آه منه اللعين وكأنه قد سمع آمالي الأخيرة، فك السلك المعدني وأخذني ومعي عدة قطع أصغر، رمانا في الموقد استعداداً لحفلة الحرق الراقصة، كنت أبكي بدموع من غنج بينما أبو فرملة يسكب الكيس في البرميل فيتطاير غبار أسود في الهواء .. يأتي صوت الزوجة من بعيد "هوه شن درتنا" نفض الكيس من آخر مسحوق ثم قربه لأنفه الصغير شمّه بعناية مقهقهاً .. رائحة الشعير والفئران لا تختفي من الكيس ولو ملأته قطران، ردت عليه ابنته بابتسامة مجاملة ولوحت له بكوز سمين من الذرة .

تناولوا عشاءهم الدسم، نظر أبو فرملة إلى زوجته فابتسمت وقالت: ما رأيكم لو أننا أعددنا الشاي على الفحم، فحم جديد وكبير ما شاء الله .. كنت أنظر إليها بحقد وأتمنى لو طقاشة تحرق إحدى عينيها .. شعرت أنها متحفزة لامتصاص دمي الأحمر والأسود أيضاً.

واصلت الزوجة حديثها : بعد أنْ تستعر النار جيداً .. سنشوي أكواز الذرة الطازجة .. ما إنْ أكملتُ التاء المربوطة المكسورة حتى سقطت الحُبيبة الباكية على الأرض من هول المفاجأة، قفزت وتركت كوزها، لم تجد صعوبة في القفز ساعدها على ذلك أنها كانت غير متمسكة جيداً في الكوز، كان أحد المشترين قد نبشها بظفره

الطويل ليتأكد من الجودة، ما إنْ سقطت على الأرض حتى هاجمتها قطة فضولية سمعت دوي السقوط الهامس .. خبشتها قليلاً، لعبت بها كخرزة، شمّتها، لم يعجبها الطعم الذي ليس بلحم أو لبن أو جبن، ركلتها برجلها لتغوص بعيداً في تراب الحديقة، كانت الحبّة تصرخ من ألم المشاكسة، قالت لنفسها : هربت من النار، فوقعت في النبش والوخز والركل وأخيراً الوأد في التراب، قبل أنْ تبتعد القطة لتجثو قرب الزوجة، نادت الحبّة السماء : أريدُ شمساً أريد ماءا، أجابتها الشمس بلغة الشعاع : الرياح .. الرياح .. الرياح ..

بصقت الزوجة سائل الوقود على كل الموقد، أعقبته بعود ثقاب مشتعل، ارتفع لسان من اللهب أو ليس لسانا إنه فوضى من الألسن، لم تقتنع .. زادت عليّ بصقات أخرى وأخرى ؟ ارتفعت ألسنة مختلفة، كنت أصرخ من حر الحريق وكانوا يضحكون ملء بطونهم ليس على صرختي، إنما على فكاهات يطلقونها حول أناس فلاحين ورعاة !

صرخت حتى اهتز الموقد، بكيت حتى بكى معي الرمل الذي أتوسده، تحول سوادي إلى وهج، حتى الأكسجين الذي كنت أنتجه أيام العز، انقلب ضدّي، أصبح لا يعرفني .. أصبح يقترب من اللهب مُتزلفاً، قلت لنفسي التي يحترق كيانها : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اتق شر من أحسنت إليه، زاد الصهد فاحمرّ واسودّ فيّ كل شيء، استسلمت للسعير، تحولت روحي الخضراء

إلى حمـراء فاحمـة .. تـشـبعتُ بالعدوانـية، أحببـتُ أنْ أحـرق وأمـزّق أي شيء .. كسانـي الهبو والـرماد، مـات كـيانـي كلـه، إلا روحـي الـتـي لـن تميتها إلا نـار الله لتحيـيها مـن جديـد، بعـد أنْ تحرق منها كل دنس قد علق بها في رحلة الأيام ..

عُريت أكواز الذرة من أثوابها الباهتة، أزيل شعر بكارتها، قُبلت وهي نيئة، شُمّت ثم أرسلت إلى اللظى، قلبت على سعيري .. كنت سعيدة وحزينة في آن واحد، لمسني جسدها البارد الذي أنتجه الثلاثي الماء والتراب والشمس، كانت لها أم مثلي، تبادلنا رائحة النسمات في الغابات .. والآن ها هي تعانقني في مكان لا أرغبه ولا ترغبه.. موقداً من سعير.. ياللعار.. يا للتعاسة .. والآن لامستني ببردها المنعش .. فطوقتها بناري اللافحة، كانت تنفجر ألماً وتزداد بي التصاقاً واستجارة، كانت تـثق بـي رغم أنـني أحـرقها وأحـرقُ نفسي وروحـي .. وأخيراً تهـاوت وارتخى الكوز المتصلب مستسلما لمقصلة الجحيم.

حبيبات الذرة السوداء كزيتون صغير أو كرؤوس زنوج حشروا في شاحنة تجري وصندوقها يرتفع تدريجياً كشاحنات تفرغ حمولتها من الرمل، وتأخذ الرؤوس في التساقط لتقع وسط غابة العائلة التي تقضم وتنهش وتنتش وتمضغ بلذة عنيفة .. طبعاً هناك فرق كبير في الطعم والسعر أيضاً .. بين الشيء المطبوخ والشيء المشوي، كانوا حلاقين مهرة، أسنانهم أحد من شفرات التمساح الأبيض، في دقائق كانت كل الأكواز قد أزيح منها كل ما أينع أو لم يينع .

الأم السمينة التهمتْ كوزاً نيئاً.. قالت طراوته ستذهب الكربون العالق في الأسنان، اقتدوا بها جميعاً وكل واحد نظف أسنانه بكوز لم تمسسه النار.

تجرعوا الشاي الأخضر بالنعناع وأعقبوه بالماء البارد وكنت أنا في الموقد أصغر وأتلاشى وأخبو، أنظر إليهم وكلي المتضائل يشكر الله على أنني لست ذرة، تأسفت لحال الذرة ثم رمقت تلك الحبة التي وأدتها القطة في التراب، كانت في حالة إغماء، سمعتْ صرخات الحبيبات في الأكواز حبّة حبّة، صرخة صرخة، صرختْ هي أيضاً حتى بُح صوتها .. كانت تصرخ للرياح بألا تأتي أبداً أبداً .. التراب جعلني حيّة .. كانت النار رحيمة والأكسجين شعر بالخجل فابتعد عن تخومي، فانطفأت وتوقف التلاشي وأصبح مازال مني باقي بقية باقية .. في اليوم الثاني رُميت في القمامة مع أعجاز الذرة الخاوية من أي حبات، ومع الليف الرقيق وستائر الأكوان، وكانت القمامة تشكيلة من المخلفات من ضمنها قطن مقفل لطفل رضيع . عندما أخذ ذباب فضولي يحاول حل طلسم هذا الملفوف كنت أنا أتقافز لأخرج من البرميل، وفعلاً نجحت إحدى محاولاتي بعد أنْ نبشني ولد يافع كان يبحث عن " تير أسود" قلبني بين أصابعه الرقيقة ثم ابتسم وأخذ يرسم على الجدار نخلة وسمكة ووروداً وعصفوراً وفراشة وعروس البحر ثم خطوطاً أفقية تحت ما رسمه .. تمنّى لو كان الفحم لونه أزرق، كان قد بدأ في رسم الشمس عندما صرختْ فيه أمه : أدخل واترك القمامة .

قال لأمه : حاضر..

ثـم نظـر ذات الـيمين وذات الشـمال، نظـر تحـت ولم يـنظر فـوق.. نظـر إلى الأمـام ولم يـنظر إلى الـوراء، أكمـل رسـم الشـمس وأرسل أشعتها في جميع الاتجاهات، أعادت أمه الصراخ فرمانـي عـلى عجـل في منتصـف الطـريق ثـم دخـل البيـت، تطاولـت أعجـاز الأكـوان، شعرت بحسد ما، آخر شيء قد رأيته كان ما رسمة الطفل وفي لحظـات كانـت شـاحنة ضـخمة تدهسـنـي بعجلاتهـا الكـثيرة لأتحول لمسحوق يشبه الكحل ..

تـوهـج

عشـيـة الخـمـيـس حلمـت بـك . كنـت بجانـبـي عـلـى الفـراش، تحدثينني في الأدب، وأحدثك في الفن . كنا سعيدين جدا، حتى أنني لم أغضب عندما أيقظوني، لأنهم لو لم يفعلوا لكنت احترقت من وهج القصيدة الـتـي بـدأت تـنقش نفسـهـا وتـتدثر مـن (العـين) بشـغـاف قلبينا الرقيقين ..

بعـد منتصـف الـلـيل نمـت وأنـت آخـر صـورة أطبقـت عـلـيـهـا أجفـان ذاكـرتـي وانـتظرتك متـلـهـفـاً، وبـزغ الـفـجـر ولم تـأتـي ... وعـنـدمـا أشـرقـت الشـمـس كـانـت أشـعـتهـا الدافـئـة تناسـخـات مـن طـيـفك، فاستيقظت ضاحكاً كرضيع لا يشكو من المغص ...

وقالوا : ليس من عادتك الاستيقاظ ضاحكاً !

ما الطارئ أيها المجنون ؟

هل هو حب جديد ؟

وقلت : لا ... إنما حب قديم اكتشفه علماء آثاري ..

وغضبت، وثارت ثائرتي، وتركوني أمطر ما في قلبي على ضفاف الزمن، وبدأت أسطر قصتنا .. عندما كنا صغارا ونحن نقرأ معاً ... ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والألغاز والطلاسم والمنفلوطي والشابي وجبران والجاحظ وعنترة والمتنبي والناقد والعربي والحرية وأخبار الأدب والجماهيرية ... وكل ما وقعت عليه أبصارنا من معاناة عذبة، وكنا نبصر بعضنا متلفعين بالحروف الزاخرة بأحاسيس الأمل... وكان القدر يقرب بيننا ويباعدنا كبحر لا يرسو على حال ..

في طرابلس أدور وأقول ثمة شيء جميل هنا ... ثمة قرين تائه.. أتطلع في العيون التي تلاقيني أجدها ملأى " بنوبات المألوف* " وأتمتم حزيناً : " لا شواغر هنا، العشق لديهم هواء " ...

وفي بنغازي أدور هنا وهناك، أرمي بإبصاري فلا أراك وأحس اقتراب خطواتك الراقصة، أحاول اقتفاءها لأعرف معهدك أو مأواك... وعندما أخجل من أنفاسك السابحة في هواء بنغازي المملح وهي تدفئني بجملة : لا تحيل القدر إلى البطالة .

لو أراد جمعنا لفعل، وها هو قد فعل وجمعنا في حلم عشية جميلة ربما تكون أروع عشية عشتها في حياتي ...

جرعة برزخ

ارتفعت حرارتي ... تجاوزت مدارات الحمى ... أدخلتني عوالم النيرفانا ... صيرتني أعيش في أعماق سحيقة ..

أعي وأستلذ بكل ما يدور فيّ وحولي ...

أتخمني الوعي واللذة ... تبركن كياني ... قذائف حممه ذوبتني في نيرفانا أخرى ... فاستمررت أعي وأستلذ بكل ما يدور فيّ وحولي.

أتخمني مجددا ومجددا الوعي واللذة .

صارا يقذفان بي من نيرفانا إلى أخرى أشد وطأة وتوهجاً وإشراقاً ..

قال لي الطبيب : الحمد لله على سلامتك (قريب رحت فيها شكارة بحر [1]) لم تجد معك الضمادات الباردة ولا أصابع التخفيض

---

(1) تعبير باللهجة الليبية يعني كدت أن تموت

الشرجية ولا حتى جريش الثلج الذي دثرناك به ...

إبطك ثم فمك ... فجرا مقياسي الحرارة، خفنا أن تتسمم بزئبقهما فاضطررنا أن نحفظك ساعة في ثلاجة الموتى ...

تـفـسـخ

بـين راحـتـي قالـب صـابون .. أبلـله بقليل مـن المـاء .. أملـس عـلى وجهـيه بـرفق .. يـتملص وأعـيده .. تـتولد فراشـات الـرغوة مـن شـرانق اللزوجات .. بعض الفراشات تطير .. وعلى كيانها تنتقش صورة حية لكل ما يحيط بها .. يتحرر شهيقها حالما تلامس أي شيء .. بما فيه نفسها .

أفرك حواشي أظافري .. أخلل أصابعي في بعضها عدة مرات.. تبتسم الخطوط .

وتقهقه البصمات .. الرواسب العالقة تفك تصمغها .. وتذوب .

أركن القالب في مهده المنحوت في قيشاني الجدار.. أضع يديّ تحت دفق الماء .. أنشفهما بمنشفة جافة .. أعطرهما بقطرات من (الكولونيا)

ثم .. ثم ماذا يا ربي؟؟

لا شيء .. لا شيء غير أن ألبس قفازات من قشور الليمون.

تسرب

أشياء تجذبني إلى الخارج ،تدفعني من أعلى، أقاوم وأقاوم ثم أستسلم للذة الاستكشافات

الفطرية فأنطح بكارة أمي .. وأخرج صارخا مضوضئا .. أفصل عن الرحم بسرعة .. أذناي مليئتان بصراخ أمي .. زقزقة عصافير .. أذان ديوك .. أصوات حياة فجرية .. تنظف مسامعي من ضوضاء الولادة. . أمي أغمي عليها.. وأنا أصرخ بقوة لألام البتر.. تقرص سرتي بمساكة تتدلى منها وريقة مغلفة بالبلاستيك تحوى حكايتي العضوية

أمي لم تتزوج .. عشقت حبيبا .. التقيا .. ليلا .. نهارا .. اشتعلا.. تماسا .. كانت حريصة .. كانت تحذره دائما أن وراءها ليلة.. فلا يضغط بعنف .. ولا يدفع للأمام .. كانت تمسح المنطقة جيدا بالمناديل ولا تكتفي فتغسلها بعناية بالماء والصابون .. لكن يبدو أنه قد حدث تسرب ما .. يبدو أن أحد الأشقياء فضولي .. أو أنه عشق بويضة نصفي فزارها في غفلة من جمارك الاحتراس .

أبى هو الحبيب.. أمي هي الحبيبة .. أنا الفاض من الداخل .. متى . متى أرتد!؟ .. صرت ألج الدنيا بكليتي فلا أستلذ .. فلا أقذف إلا الصفير .. أحب بويضة ضائعة .. أبحث عنها بين أكداس الإجرام .. يبدو أنها لا تعشقني ولكان تواطأت وخرجت لي .. أو صارت حتى شبه سراب دافيء منير فأنجذب إليها دون تفكير .. كالفراش مع اللهب .. كاللعاب مع الجوع .

بابا حالته مستقرة الآن .

ماما حالتها حزينة مكتئبة .. مضطربة .

الناس كلهم سبابات مشرعة .

لقد اتفقت العائلتان وتم تناول الأرز واللحم وتم ارتشاف الشاي واحتساء القهوة في سلام .. لم أعد أمام القانون ابن (......) أنا شرعي الآن .. أناعريس جنين .. رأسي الطري فاض للبكارات .. هاه .. هاه .. هاه .

أبى يبتسم لقهقهتي وأمي تبتسم أيضا .. أرتمي في حضنها تارة وفي حضن أبي تارة أخرى .. أنا سعيد بينهما .. ذراعاي تطوقان رأسيهما .. وعندما يقفان أتأرجح بينهما .. وهما يمشيان داخل البيت وفي الحديقة وفي الشارع . وفور ما أتعب، أصيح، فينحنيان، فتلمس معافسي التراب وأترك رأسيهما وأمر راكضا في امتداد مستقيميهما المفترضين إلي ما لا نهاية .

سرعان ما شاخا .. سرعان ما كبرت وعشقت .. صرت أتواعد معها .. في العلن والسر وفي الأحلام .. استمرينا في اللقاء والتوهج .. كنا حريصين أثناء التماسات .. لا نريد الوقوع في أخطاء الأسلاف .. حتى القبلات الجبينية والخدية نمسح آثارها بالكحول .. ومع الزمان وقع المحضور.. شحبت وانتفخ بطنها .. واتسع الفزع في عينيها .. بل تشسع إلى أقصى مدى .. وشاركتها نفس الشعور.. وفي ليلة المخاض كنت في زنزانة انفرادية رغم اعترافي بالفعل وتحملي لكافة المترتبات.. أحب أن أسمع الصراخ .. أسترجع ذكريات قدومي .. أحب أن أنظر إلى من اغتصب حقي في فض بكارة.. ندمنا الآن على عدم فضها.

بعد فترة النقاهة سقنا إلى المحكمة لتوقيع الأوراق .. كنت في قفص الرجال .. وكانت في قفص الحريم تحتضن وليدتنا بود وتتأذى من العيون والعدسات المسلطة إلينا وكأننا دمرنا هيروشيما وناجازاكي .. التقت نظراتنا .. تعانق سخاء ذرفهما .. نشجنا معا .. حتى المولودة شاركتنا.. واه.. واه.. واه .

أمرنا القاضي بالسكوت وقدم لنا الحاجب بعض المناديل .. وقرأ القاضي الحكم بترو.. وختمه بجملة ملحونة : ليكونا عبرة لمن اعتبر..! نفذ فينا الحكم وبكينا وضحكنا .. ولا ندرى على أنفسنا إلا ونحن قافزان إلى رحم الحياة .وصرخاتنا متخمة بالشهيق.

طائر مثله

كلما انتابني ضيق التجأت إلى البحر، حيث يصب أنبوب المجارى، أجلس على يمينه أو يساره متأملا تهاطل الخليط الرخو.. البحر لا يحتج والأسماك القذرة والنظيفة تزدحم تنهش لقمتها المضمخة بالملح ..

لم أشعر بالتقزز ولم يجرؤ الاشمئزاز على مهاجمتى رغم تسلحه بنفثات مركزة من النتن الصريح ..

بين الحين والحين أنقل رأسي ليس إلى البر إنما إلى جهة البحر الأخرى .. أخفف تركيز ما شممت بنشقات من زفير اليم المصفى ..

هذا الأنبوب كعيني الخنساء لا يتوقف عن الذرف .. حتى في أيام الجمع والأسبات والآحاد ... لكنه حدث أن توقف يوما ما ! .. ذاكرتى تخوننى في تحديد اليوم .. أحب ذلك لذلك لن أشنقها ..أي يوم ذاك يا ربى ؟.. أي يوم ذاك... ؟ ..الأمس .. اليوم .. الغد .. ما وراء الزمن .. ما قبله ..؟؟؟ ..أبعدت سبابتى عن صدغى .. أف بلذة ..

الروائح العطنة غذاء للنسيان .. والنسيان نار فارسية هائئة في قعر بركان!..كيف لي أن أتذكر وسط هذا اليحموم .. إن حاولت ذاكرتى الومض ستدك .. وإن لم .. ستتكلس دون نقوش .. لذا سأعود إلى المأوى .. إلى بيت خلائى العزيز.. وأبدا .. وأبدا لن أبرحه .. وإن فجرني الضيق تفجيرا .. بالآدمي الفصيح أخشى أن أتورط في الكشف عن يوم تسلل خلسة من الأنبوب (المصنبر) من الجهتين ..

إزميل يحــرث

ملّــت عيــناى مــن رجــم المرئــيات .. قلــت وهــل يقتلــنى الملــل؟!سـأغيّـر قلـيلا .. رحلـت إلى الخـلاء .. الخـلاء قريـب جـداً .. لا تصدقونى إن قلت لكم أنه على بعد خطوة وفى أي اتجاه بما فيه الاتجاه الذي لا يلمس الأرض!

الخلاء دائري كحبة عيني .. تفرست جيدا .. لم أرجم شيئاً سوى الامتداد الشفيف .. الخالي من النقاط الدالة .. لانوارس تطير وتحط .. ولا أمواج تتعالى وتنكسر .. وصلته الصبح ومن فورى عمَدت قدمي الحافيتين بغوصة في فتيت هشاشته .. لم أرفع رأسى .. لا أرغب في رؤيتها وهى ترتقى رتيبة ككل يوم .. سعيد أنا الآن .. لم يكتنفنى الملل .. الامتداد الدائرى اللامتناهى لا يقاوم الرجم .. لا صدى يؤنبني .. ولا رد فعل اتحاشاه .. خفت أن تطول سعادتى فتحترق .. قلت أكون السبَّاق وقرنت رجمي باللعن .. ألعن مع كل غمضة بصر .. ولأكثر من نسل اللعن صرت أغمض كل عين على حدة..

تك ..تك .. واحد .. اثنان .. أنا سعيد بهذا الفعل الجمالي .. لكن الجمال عليه اللعنة يكره الاستقرار والاستمرار .. رحل سريعا .. ككل حلم مطواع نشكّل نهايته كما نحب .. كلّي ينهل من الينبوع .. كلّي يحمّل عربات رجمي جبالاً من الحزن .. والبغال مشكورة لا تتوقف عن الجر .. المهم أن المرئيات عادت تتراقص في هيئات أفقية رخوة .. لأول وهلة ظننتها سراباً خادعاً .. لم أعبأ بها لولا أنها تمادت وأضحت تتقدم بوقاحة .. تراقصها المتوتر يتماوج يرتج .. ينتفض .. يحاول التشرشر والاستقامة .. صانعا تشكيلات أفقية رقيقة حادة تذبح كل رقاب المسافات الفاصلة بيننا .. لم ألحظ الدم .. تعجبت لذبح بارد .. وزال عجبي حالما بدأ عصعصي ارتعاشة النزف !!..

مسند ظهيرة

من حناجر العصافير تنبعث زقزقات متنوعة، تمتزج بهفهفة الأشجار، خالقة موسيقى آسرة، تروي ظمئي، فتنبت في روحي أزهاراً تغمر الفضاء بأريجها ..

يمر بي الناس .. بعضهم يحييني .. وبعضهم يشير إلى يدي ويسألني عن الزمن ..

في منتصف النهار أغادر الحديقة ..

بعد الاستحمام .. أتناول طعامي .. أستلقي متأملاً .. المذياع على المنضدة يصيح .. وساعة الحائط فوق رأسي تدق .. كلما مضت ساعة تحولت دقاتها إلي صراخ ..

أتألم .. أتعاطف .. أنام ..

في الحديقة أسندت ساعة الحائط على مسند الكرسي، وجلست جانبها .. أستلذ كعادتي بموسيقى الطبيعة ..

بعـض الـرواد يحملقـون .. ولا أحـد مـنهم يسـألنـي عـن الـزمن .. البـندول يترنــح .. أهزهــز رأســي .. أرفعهـا .. الشـمس تقـترب مــن التعامد.. أخفضها.. تستقر عيناي على ساعة يدي .. نصف دقيقة وينتصـف الـنهار.. عقـرب الـثوانـي يـركض .. العصـافير تزقـزق .. الأشجار تهفهف.. وساعة الحائط تدق وتدق وتدق ثم تصرخ اثنتي عشرة صرخة..

اصطياد

قفزت إلي عينيك، اعذريني لطريقة الدخول، فأنتِ كثيرة الرمش، وأهدابكِ سياط تجلد كل من يقترب ببطء ..

يقولون أنّ لعينيك سحراً .. يسحر كل الناظرين، يربك أزمانهم، يجعلهم هائمين في اللا مكان .. ولكن أهدابك قضبان من سياط لاسعة..

عند النوم تلاصقت الأهداب وأقفلت جنة مقلتيك بإحكام، وكنت داخلك، وانتقلت من عين إلي عين، الرف البسيط يعلن عن بداية الحلم .. أحلامك كعينيك سريعة الفتح، سريعة الضم .. قفزت إلي الحلم، اعذريني ثانية لطريقة الدخول .. وطار الحلم إلى السماء لاصطياد ملاك، ما أجمل أن يتزوج الإنسان ملاكاً جميلاً طاهراً ..

رمى الحلم بصنارته في بحر الفضاء، لم تمسك شيئاً .. أخذ ينادي : أيها الملاك .. تعال .. تعال .. أنا ملاك أرضي .. ظهر ملاك .. كسر الصنارة وابتعد ..

غيّر الصنارة بأخطبوطية، فظهر ملاك آخر وكسرها .. صرخ الحلم صراخاً كابوسياً : أريد ملاكاً .. لابد أن أصطاد ملاكاً .. لابد .. لابد .. لابد ..

شعر الحلم بثقل في رأسه .. فرك عيونه .. أحسّ بي .. اصطادني، جعلني طعماً في صنارة خازوقية ثم رمى وتحفز للجذب .. بعد تشخيرتين سرعان ما عضني شيطان فصرخت وفتحت هي عينيها لأخرج قافزاً كما دخلت ..

حب بدل فاقد

وصلت ذات مرة إلى شفا هاوية من يأس .. استجمعت شجاعتي وقفزت .. مت بإرادتي .. فلم يقبل موتي .. عدت إلى شفا علو من أمل وارتفعت .. لأجدني إنسانا مضيئا من جديد .. تتقاطر من أسمال كينونتي ومضات مبللة .. أضاءت دروبي بنور معوض لإنسان دقات قلبه حبات غلة سبق طحنها وتم تدارك ذراتها بالجمع قبل أن تخبز أو تعصد طعاما لغير المستحقين ..

أنا إنسان بدل فاقد .. لم يرض أحد بموتي أو بحياتي .. علي أن أكون كما وجدت .. أولد وألهث وأموت .. ليس بإرادتي .. البداية إجبار.. والنهاية إجبار.. أنا قطار لا يطرد الراكبين .. ولكن أحيانا يحلو لي أن أتمرغ كحمار!!

من على كاهلي انهمرت وريقات المشاكل ... تألمت من وخز اللامبالاة ... ساحت على الأرض .. وفي الأرض !.. تكثفت .. وطارت باحثة عن كائن علوي مصمغ بالتشاؤم لتفكه وتولد دافئة راوية

لجفاف التفاؤلات اللامحظوطة ..

كـاهلي خفـيف .. رهـيف .. طحيـنـي .. ضـبابي .. هلامـي .. يبحـث عـن همـوم ليتماسـك، الشـوائب ضـرورية لصـدق الـلمعان .. اللامبالاة تشبثت بالهم الضروري .. إذن .. سأحـب .. سأحب أي أنثي مملوءة بالكذب .. وصدقها بالنسبة لي أن تعترف أنها كاذبة ...

سرعان ما وجدنا بعضنا .. وتمتنت العلاقة .. صارت أمتن من حبل ميناء ... كلانا كاذب .. معترف بكذبه .. إذن كلانا صادق ساخر مـن صـدقه .. لابد من تدعيم الكذب بشوائب من الصدق الصـريح .. وفق ناموس التماسك واللمعان ... قلت لها .. قالت لي .. أحبك ..

نطقنا الكلمة في نفس الآن .. في المرة الثانية نطقنا بطريقة أوّهت الصدى وجعلته يلاحق شهيق الاستماع .. وفي الثالثة نضب منه الزفير .. وفي الرابعة صدقنا وافترقنا متعطشين لحب بدل فاقد

لا يخاف الطير

الشمس عمودية. وقوفه عمودي. ولأجل عيون الظل احتملت الأرض قدميه، وأيضاً قعدته عندما جلس واستلقاؤه عندما اضطجع .. كانت مفاصله تنوء وتتألم، ردم نفسه في الرمل، تاركاً رأسه يطل كشاهد . قاع القبر منعش وسقفه شديد اللفح، أسبل جفنيه وغرق في سنن من الاسترخاء . عرقه ينز يسدد الإتاوات للاصطلاء . الحر طغا على البلل . لم يعد يحتمل . أنتصب واقفا . نفض جسده من العوالق . أثناء استرخائه انزاحت الشمس مسافة فمالت، تأمل ظلّه المنطرح، لم يعجبه . بدأ في ردمه . الكثيب يعلو والظل يرفض الوأد، اندهش .. لعجزه دفن ظل !

تمتم : يا للعجب .. قبر فوق التراب .. لكن أين شاهدته ؟

بحلق في بداية ظله ثم نهايته، التقف حجراً صقيلاً وضعه فوق رأسه وابتسم ..!!

وردة النار

أشعلت سيجارتي من " النرجيلة " وشكرت النار وتبادلنا الحملقات مع الرواد المدخنين ثم جلست أخط إليك هذه الكلمات التي ستصلك حتى وإن مزقتها الآن !

ذات يوم سنحت لي الفرصة وزرت فزان وخرجنا بالسيارة بعيدا عن العمران نتمتع بجمال الكثبان الرملية ذات الحبيبات الشبيهة بالسميد، وأذكر أنني اختليت بنفسي وخلعت مداسي ومعطفي الخفيف وانطلقت أهرول دون هدف واعتليت قمة كثيب وصرخت في الصمت المطبق وغنيت وتدحرجت حتى الأسفل وصعدت من جديد وبين الفينة والأخرى أرقب آثار أقدامي الصاعدة وكيف أنها غائصة أكثر من غوصها أثناء الهبوط، وفعلت ذلك عدة مرات عشت بعدها في سعادة ... وكأن الحبيبات الرملية إسفنجة ممتصة للهموم التي لا تخجل ..

أشعلت أخرى من المجمرة وأجججتها شكرا وتلقيت ردها لفحة

دفء سرت في راحتي اللتين اقتربتا أكثر بباطنهما من الجمر دون أن يفسد الجمر الخطوط ..

أتجرع قهوتي وأتطلع في حثالة الفنجان، تبهرني عوالم تجريدية بلون السواد البني المبيض، أنبش القاع بإصبعي وأمتصه، أعمل البصر في إصبعي ولساني والقاع، باحثا عن تماس انحشر بين ضلفتيه ..

سرعان ما أجده وأهم بالدخول فلا يسمح لي وأنا عليّ أن أدخل.. أن أشعل قلمي في مجمرة المداد وأحاول .. وأتهور .. وأقتحم اليم عبر المعاني والكلمات الآسرة للنفوس .. وحتى وإن توهجت إلى حد الاحتراق .. وحتى وإن ندمت على مقايضة هذا السحر بثمن غال (كما يقول الشاعر الفزاني) فذلك لايهم ..

قد يستغرب العالم كيف يكتب الكوني كثيرا وبنفس المستوى الراقي الرفيع .. وقد لا يستغربون إن عرفوا أن في كل إنسان جذوة مطمورة عليه أن يعرّيها بمزيد من النفخ .. قد يعمى من الهباء وقد يعوَرّ من " الطقاش " ولكن إن اشتعلت فلن تكون لبصيرته نهاية .. النازف كعازف الناي لا يقهقه.....

شفة البحر

- 1 -

الشفة العليا تلطم صخر الشاطئ، والسفلي تجرف قواعده .. يحدث هذا في جمجمة البحر. فالفكان يتحركان مادامت أمامهما شواطئ ... وإن اختفت الشواطئ سيفقد البحر شفتيه، ويمضغ نفسه إلى أن تغرقه مياه الأمطار، آنذاك تصير الشمس كئيبة .. والقمر أكثر كآبة .. والنجوم ستتباعد باحثة عن بحار أخرى .. زاخرة بالشطآن الوسيعة ..

في درس الأحياء، سأل التلميذ المعلم : لماذا لا يتحرك الفك العلوي في جمجمة الإنسان رغم تأييد قوانين الجاذبية له ؟

بعد مقدمة طويلة عن المطرقة والسندان والطزاجة المحصورة بينهما ... تلا المعلم الإجابة المدونة في الكتاب المدرسي، غير أن التلميذ لم يقتنع فأعاد السؤال في الحصة التالية على معلم الفلسفة الذي أجاب : هذه هي الحياة لا تحتمل فكين، فما بالك متحركين ومتقابلين ومليئين بأنياب المطاحن القاطعة .

- 2 -

قـرب الميناء رمى سنارته في المياه الملوثة بـروث السفن، هذا الـروث الـذي أفقـد الأسمـاك أبصـارها فضـلت طـريق الخـروج الـذي يحتـاج دائمـا إلى عينين مفتوحتين .. مـلأ سلته بـالأسمـاك العميـاء ... وقـال في نفسه لا تسألونى لـماذا الصيد وفير على ضفاف الموانيء ؟ ثم نزع نظارة سنارته كي لا تراه فكاها ..

بعدهـا تـأمل في يومـه وقـال لـلملأ في نفسه : فم اليوم مطبق ... شـفة الـنهار تـرتفع .. شـفة الليل تـنخفض .. فـيفتر الفجر عن ابتسامة عذبـة .. الشـمس تحـتفي بهـا فتشـرق والعصـافير تحـتفي بهـا فـتزقزق والبشر أيضـا يحتـفون بهـا، فـيحترقون إن تمـاهوا مـع الشـمس ويجـنون إن تمـاهوا مـع العصـافير ... والـولادة شـفة والمـوت شـفة ومـا بيـنهما فسيح من المتاهات الطازجة ..

في المسـاء كـان جائعـاً بـاردا .. مضـغ قطعـة سمـك .. حـاول بلعهـا.. توقفـت في حلقـه .. فـنظر من الـنافذة ليري الشفة العليا تمضغ الصـخر والسفلى تجـرف قواعـده، انزلقـت قطعـة السمك .. وارتفعـت رائـحتهـا .. زاد قطعة أخرى وأخرى .. حتى شبع .. ثم تجشأ .. واستدار إلى سـاعة الجدار، يعبـث بأصـابعه في عقاربهـا محـاولا تخليص بضـع ثوان من بين فكي الزمان أعاد الكرة باستخدام إصبع مـن (الروج) !!

الأزل المعاكس

ألفوه أعمي .. يجذب إليه أي شيء .. ولا يرفع إلا الخضرة ... وإن غضب يكتفي بنفث بضع حمم ... يمسح بها قشرته من أدران العائشين ... ثم يتلوى ويتكور قابعاً في الفلك المحدد له، سابحاً كيفما أريد له وأراد ...

عندما ولدت هي من رحم الوجود وعاشت ومرضت واحتضرت ... ثم ماتت لتدفن في تراب الفضاء ... دون غسل ودون صلاة ...!

ومن أول ليلة قبرية بدأ الثعبان عمله، اليمين ابتعد والشمال ابتعد ليتهوى المكان ! ويرتفع عويل الآلام ... مالئا فضاء أوعية الصمت الفارغة .

في الصباح غيّر الثعبان جلده بلون قاتم وباشر عمله ... وهي تطلق الآهات لتحرق قشرتها مكفرة عن أخطاء الأسلاف .. وعندما شبع الثعبان وأتخم ساديته تركها وانسل للراحة والتلذذ .

تنفست الصعداء .. وأدارت رحاها من جديد .. استنشقت النسيم، فغسلتها ألبان المطر حتى تطهرت .. آنذاك رحلت عبر سنن من التسابيح الشجية ولكن ظلت أنفاسها ميتة وحركتها .. قد تتحرك الأشياء دون روح ! .. أخذت تبحث عن الروح .. تنط .. تتدحرج .. تتقلب .. تقلبت في كل دهاليز الفضاء الرحبة، علها تعثر على الآلهة المانحة لهذا المعنى الجوهري الشفيف .. هدّها التعب .. نامت .. أتى الثعبان الكابوسي .. ضاجعها .. لم تقاومه .. أفصح لها عن رغبته في قتلها وتفتيتها .. فحّ فيها .. أريد أن أعدمك .. أطلبي طلبك الأخير .. نظرت إلى الأعلي ... رأت الروح تتدلى ناحيتها .. قبل التعشيق مُسِخ الثعبان إلى حبل، أسلاكه ديدان وعقده نمل مشاكس يتولد من شعلات النشاط، ذاب كيان الحبل في ذرات غيره، وهي استعادت توازنها، وعادت إلى طبيعتها السابحة بقدر .. تلاحم ترابها .. أنبت .. أزهر .. أثمر .. أحيانا يزعجه تراب الثعابين فيتزلزل ويفيض ثائرا مخلفا بعض الدمار الذي لا مفر منه كي تستمر الحياة في سفرها داخل دروب وسراديب الأزل المعاكس ..

للأزل المعاكس أيضا فوه .. يقولون إنه لا يجذب ولا يغضب ولا يتلوى متكوّرا .. فقط يرتفع ويرفع الأنقياء معه إلى أزمان شموسها تشرق من الحضيض .

من صدغ إلى صدغ أضيع

ليس أحبّ أنا
ليس أحبّكُ أنت
أحبّ الهواء المفجّر للفضاء
النور الذي لا يُضاء
القُبلة الملعونة في صمتها ..
الضلال البائس في الانتشاء
القمر الغاطس في ظلّه
الشمس الممتدّة للسماء
النجمة الوميضة كالصدى
الفحمة الكحيلة بالدماء ..!!

ليس أحبك أنا .. بيد أنني جويل في مدارج ذاتك .. متلمس شتات لظاك .. أمدد دلائي في أغوارك الراحلة .. في سحيقك الغريق .. الغريق ..

دلائي لا صتّارة في طرف روحها .. ولا طعم جائع غوّاء .. أمددها بهوارة حتى تكاد تنخلع من منابتها .. ولتنخلع ولتتوه في جروف أعماقك الراجفة .. سأضرم ناري في ضنين حطبي .. في أعوادي الناحلة التي تسولتها من شجيرات حنّاء وزيتون .. لابد لي من قدحة تنعشني .. أمدد أكثر .. اتلاحق تلافيف صلاداتك .. ترطمني نعومة أعيشها فيك .. حتى أسنانك يباسها ناعم .. رُفات اللوز الكاسح أخبرتني .. منحتني شهادة أطربت ظماءات جفافي .. هشيم مجسّاتي تائق للعضيض .. أنا لحمة في وليمة جوعك .. عظم مستسلم سليخ .. اقتربي يا قدحة البدء .. يا بكارة المنتهى الصريح .. أدور في متاهاتك ولا أضلّها .. دروبك مفضية إلى كوّات روحك .. دواخلك صاخبة بالتناهيد .. خوارجك تهدهد رجوفي تُصخّبها .. أرتطم بشغاف آمالك .. فتتحسسني إسفنجة دبّقها الحنين .. ذراعاك تعانقاني ببطء .. أناملك تكسران رتابة أقلامي .. تمسّحان على ظهري .. تنقران فقراته .. فقرة .. فقرة .. وإذ يغدّ صدى النقرات في التلاشي تتشبّثين بخميرته المرهفة .. تغرسينه في أصيص الترانيم.. لترقص آذانك للعبوق الفائحة .. أبحث عن قدح .. أجري أزحف أطير.. أمسك أشياء تجرجرني .. تنتابني قشعريرة لاهثة ..

دقّات قلبينا ترتطم .. ترتطم اللعينة ولا قديح .. تغسل دموع الآسى بصابون النبيض .. تُنشّفه برياح تجاوزت مقودها .. توقي أشتعلُ أيتها الطافرة .. سأرحل في نسغ جسدك البذيخ .. أطفو على صفاء سطحه ولا أطلب نجدة .. أحرق جلابيبك .. أمزّق قفّازاتك إصبعا إصبعا .. وأحذيتك أركلها إلى قمامة حافية .. أركض على غضون جبهتك المتماوجة .. من صدغ إلى صدغ أضيع ..

لن نكترث بالحضور.. ولا بمصابيح)النيون(.. أقفليني في جُبّك المرتعش لأحترق فأبصق لعنتي ..!!

صواب أحيانا أنْ نخون اشتعالنا ..!!

الحياة طازجة أمامي .. سيارات تمر .. بشر تمر .. سحاب لا يمر في الشوارع .. نخيل باصق جمّاره .. لعابه ينعش المأزومين .. سعفه يرقص مع الريح .. جذعه يتمايل خفيفا .. جذوره تزلزل حوّاطاتها، فتتشقق تكلّسات الزنازين .

أعشقك يا ريح .. يا ذات الجذور الدافعة .. الملقّحة أفقيا ورأسيا ممسوخة إلى أعاصير .. يا مرتقة العفونة بأسلاك تحلّنا .. يا ممزقة لسكون أوهامنا .. ما أبشع نبضات وهمها بليد .

سراب أراه ولا أعانقه .. لا يمين ولا يسار له .. منطقيا لا يوجد انتصاف .. السّكين شطّار مائل .. الذى ضاجعنا هو المنطق، أما الجنون فأضحك علينا الوجوم الأبله ..

سرابي من بداية رؤيتي إلى نهاية عتمتي .. تائه مُصاد في رحلة صدى .. بين الانطلاق والارتطام واحة من تشاريق .. صدى واسم وجعه على المرحلة .. صدى لا نسمعه و لايسمعه خلاصنا ..

خلاصنا أعياه الخلاص .. يريد أن يتخلص و لا يكون قدره أن يُخلّص .. صواب أحيانا أن نخون اشتعالنا !! .. النهاية مفزعة .. آخر الطابور التهمه المالح .. الجذوة من عيني تطفىء انخمادها .. فتحت عيني وصرخت .. دموعي اعتصرت من الجانبين .. غسلت إطار الكحل حول رموشي .. ستّاجه أرّخ ميلاداتي .. سأضيع في ضياع أضاعني .. سأوجد في زمن لا يوجد .. في متاهة سُكرى غادرت طورها، فاعتقلها درك الشعاع اليابس .

الموت أمامي هادىء .. في المدفنة قبور تتساوى جواهرها .. مرمر شاهداتها كما إسمنتها .. كما حجرها .. طينها .. فخارها .. إسفلتها .. رملها .. قارها .. شفافيتها المتجمدة .. كلها تطلّ .. تصنع ظلا كعمر موتاها .. يطول ويقصر .. يرتفع وينخفض .. يرقص كلهب في خيال الرماد ..

الظل ساعة تدق ..

اللون ميقات لم نكتشفه ..

كذا الطراوة .. الأحلام النديّة ..

آه من أجفان ارتخى فجرها، ونهارها تكالبت عليه فلول الكسل..

جلدي يتقشّر ..

وأظافري صارت شاهدات لروحها ..

لحظــة رمق

في غفلة من النهار سرق الليل ظلامه، ولكن نجمة الصباح أخبرت نجوم السماء بزيف هذا الكحل، بكى الليل بدموع شفيفة، شبيهة بأفق يصطلك اتساعه من الوحشة ..!

أحب مطر الليل، أحبه أحبه .. لأنه أعمى ولا عكاز في قمة قطراته، كل التراب يروى .. يروى .. ولا صحارى على براح شفتي ..

هكذا أنبأني الشعور .. أنا رسول مرسول إلى نفسه العصية .. الأعصى من العصيان .. الآوية غير مكانها ..

أيتها النجمة .. كيف لك هذا التألق البهيج ؟ هذا الاشتعال .. أدل لي خيطا من عتم السماء .. ما عدت أثق في خيوط النور .. خيط لا يرصد، لا يظهر حتى في الأحلام .. ولا تخش عليّ فأنا ثعبان .. أنا عرق لبلاب فتي .. وإن وضعت الخيط حول عنقي فانتبهي لتمددي لي في الوقت المناسب نكاية بالجاذبية البشرية !!

أنا هو أنا .. الغائب في المنتصف والصارخان في الجانبين .. الغائب هو أنا .. أميل تارة لهذا وأخرى لذاك .. مترنح بنظام أنا .. رتابة إلى حد السماجة .. سقوط جانبي .. نهوض جانبي .. ترنح بطيء .. أغوص في الظلام وفي النور .. في هو .. في هي ..أين أنت يا (زر) التماس ؟؟ ظفري يبصر .. إصبعي أعمى ..أعمى .. تضغط خبط عشواء .. تبتر .. والتي تليها .. والتي تليها .. وكل الكف .. وعظمة ساعدي نتوء يتيم ينزف ويرتعش .. ينزف وينتفض .. والزيت الفائر مسروق .. طبخت به الآلات وجبة إفطارها الصباحية ..

أنا أتضور .. والفولاذ يتبرز النار .. والمراحيض والمغاسل ومقالب النفايات تشكرني بشدة .. والمعلم هذه المرة لم يضربني لطول أظافري !..

يا عالم .. يا دنيا .. ياهوه ...

تمرة أو جمرة ..أو حتى بعرة ..أي شيء ..أي شيء .. يسد رمق ضيائي .

هوس المناقير

الخراطيم المتدفقة بالبلل، تخنق أنفاس النار، النار تخبو تدريجياً، كقرص شمس يغوص .. الصهريج قارب علي النفاد والنار على الخمود، في المساء تبعثرت بضع نجوم واختبأت هالة النور خلف أكداس السحاب ..

الصهريج قارب على النفاد والخراطيم بدأت ترتخي كأيور خارجة للتو من أفران البكارة، النار تنحدر إلى الاضمحلال، تسلّم الانطفاء اللسان تلو الآخر.

عند الشروق، تخاصم طائران، حول من يورد الماء ومن يحتطب القش، تحول الخصام إلي شجار، الخراطيم لقّت أفواهها ! وجذوة النار أطلّت !!

تطور الشجار إلي نتف ريش، إحداهما فقد جناحه الأيمن والآخر الأيسر،

قـبل أنْ يسـقطا التصـقا ليسـتمر التحـليق ولـو برأسـين وذيلـين وأربـع مخـالب وجنـاحين بعيدين عن هوس المنـاقير...

انحسار

- 1 -

جلست في ظل السور وعلى صندوق صغير صففت محمصاتها .. المركبات تمرق والبشر يمرقون .. باعت كيساً .. اثنين .. بعد زمن .. ثلاثة فأربعة .. ابتسمت لسرعة التئام الدينار..

- 2 -

فجأة هرج ومرج وخلق راكضة، كأنها هاربة من حريق، عربة نصف نقل تقتحم المكان، قفزت واقفة ... سكبت بضاعتها في (ردنها) وأطلقت ساقيها الواهنتين للريح ..

- 3 -

بعد ابتعاد العربة كفاية.. عادت إلى مكانها.. وجدت الظل قد انحسر والصندوق قد صودر... لم تفكر طويلا... طرحت شالها...

صـففت علـيه بضـاعتها ... ونـادت بحمـاس ... زريعـة ... حمـص ... فول... كاكاوية مقشرة ...

لدغ الزمان

دموعنا لم تُضعف نضيدتك، بندولك ذيل برص مقطوع .. سنبكي بدمائنا .. سنغرقك حتى الاختناق .. فدقائقك ليست أسماكاً .. ونزفنا زفير مُصفى .. وأنت أيها المقطوع .. ألا تكف ؟

التراب ليس زجاج سيارة .. أنه طاهر شفاف كحبنا .. لا يحتاج إلى مسح .. أيها الزمن قف على اللحظات التي نريد، سنمط اللقاء إلى أقصى مدى .. وسنكمش ثلوج الفرقة لتجمد بندولك، بل تروسك عن الدوران .. أين أنت أيها اللقاء .. لقد وعدتنا .. ألا عدت؟.. ألا عدت ؟ أنقش في الشتاء، والمطر ينهمر من عيون السماء التي فارقتها بعض كواكبها، فما عادت ترى إلا غبشا .. فتزيد من البكاء، وسط بهر البروق ودوي الرعود لتخفيف تركيز الغبش ولو قليلاً . دموع السماء طرية، مؤكسجة، ترضع الورود، فترتفع، ننظر إليها، نتشممها.. لتدلنا .. تُصيرنا شلالا واقفا .. كثير العيون .. يتواضع المطر .. ويجعل مصبه من عيوننا .. أفكارنا تبرق .. دقات قلبينا وعود .. تختنق .. الدموع استحوذت على شهقنا .. بعد أن رفضت الورود مطر العيون

الذي لم يتطهر في صدرينا .. من جديد .. نصنع دورة هوائية .. بين نبتنا الذي خلق .. ونبتنا الذي لم يخلق .. ونمطر ساقين .. ونشم . أحضري يالحظات الحظ .. أقطفي واحداً منا .. نفضل أن تقطفينا وتتركي الورود .. فقد تسعف غيرنا بنفحة عطر منعشة . آه .. أنت .. لا تركض .. أو أقول لك : أركض وبسرعة .. فتش لنا عن سراب لقاء .. ولو في ضباب حلم عابر .. ولو في هاجس أماني خجول .. أيها الزمن .. كبرنا .. سنستغني عن كل أيامنا القادمة لنصل سريعاً إلى ذلك الحين .. سنصحو كل غد أو آن أو أمس لنسعف ذيل البرص .. أركض لنصل .. أركض في كل اتجاه .. ويا حبذا له كان ركضك ركض تفتيش.. فنفسنا تواقة إلى حين اللقاء الذي حدث ! .. توارد الخواطر بيننا متوأم، سيامي، ملتحم .. فحلمنا .. أننا جالسان في أحد المطاعم الآسيوية .. نلعق ملعقتين من شوربة الزواحف .. تذكرنا.. الذيل .. البندول .. ماسحات زجاج السيارات، الشروق .. الغروب .. العقل .. الجنون .. الرمش .. الفتح .. الحياة .. الموت .. ونحن المتشظية بالبعاد .. وكل ثنائيات المعروف والمجهول التي أبعدتنا عن جنون جميل عشناه برضانا الذي كتب لنا. أنت .. يا من أحب :

نحن عقربا ساعة .. أنت الدقائق وأنا الساعات ..

أنت تلفين بسرعة وتجذبينني ببطء !!

أنت تدثرينني من برد الزمان لدقيقة واحدة فقط !! ثم تعرينني وتركضين !!

هكذا .. كتب لك .. لقاء قصير.. تائه .. تائه ..

نحن عقربا ساعة .. فراشنا تراب من تروس متشابكة .. ترابنا لا يصدأ رغم البلل الجاف المستمر.. ساعتنا في يد من يا ترى ؟

أم أنها ساعة جدار أقطع .. أنا متأكد في قرارتينا، أنها ليست ساعة منبهة وإلا كانت نبهتنا قبل أن تضيع إبرتنا في ثواني الأسلاك الحالمة

المأنوس

حالما شببتُ عن الطوق، تركت أسرتي سائحاً لوحدي، طرت، مشيت، سبحت، استغرقت في فضاءات الترحال، ألفيت نفسي أمام خرابة مخلعة الأبواب والنوافذ، ولجتها متأملاً الوجود الذي يحتويني . اجتزت الممر المُفضي إلى الفناء، وسط الفناء بئر تتحلق حولها جماعة تتقلب عيونها في محاجرها، رقابها تتيمن وتتيسّر بسرعة كحكام تنس الطاولة .. توجّست خيفة .. هممت بالتراجع أو الفرار عبر السقف المفتوح .. لكن فضولي منعني فانجذبت كفراشة إلى وقدتهم المنبعث منها بخور خانق، رائحته أدمعت عيني، شعرت بصداع، تطوّر إلى دوخة .. ترنّحت .. سقطت أرضا .. انطرحت على شبكة .. وقفت .. فتشابكتْ على كياني .. عصرتني بخيوطها .. كوّرتني .. صار منظري كعصابة عرس ليبي .. اقترب مني كبيرهم .. حملق فيّ .. عاينني جيدا .. ارتفع ضحكه .. أخرج من جرابه قارورة .. قطر منها على وقدة النار .. كانت القطرات تهبط ببطء لثقلها وأيضا للزوجتها المفرطة، ازدادت

الرائحة نفاذة .. تمتم في الهواء بإيعازات جعلت الشبكة تنتفض فتعصرني أكثر وتحكم خناقها حول منافسي .. انكتم صوتي .. اكتفيت بالاستغاثات الداخلية .. بعدها لم أعد أعي شيئا .

بعد الاستيقاظ وجدتنى منكمشا في قمقم مضغوط الغطاء، طرقتُ الجدران الأسطوانية، دُستُ القاعدة، نطحتُ السقف، صرختُ، شعر الكبير بيقظتى .. طلب من مريديه إزالة ختم الرصاص، أخرجوني، وفور خروجي طرق أسماعي صوت حاد مشبع بالغلظة يأمرني بالسمع والطاعة .. وإلا .. وإلا ..

هددنى بالشّيّ على سفود الطين المتجمر إنْ عصيت الأوامر .. لعن ملّتي من جذر جذورها .. ثم رقص الكبير أمامي وطفق يُغني : لا أتكيء على العصي / والحشرات تخشى عصاتي / أنا قوي ...

بعد ذلك توقف عن الغناء وصرخ : فما بالك أنت يا أقل من حشيرة .. بحثتُ عن آخر بجانبي فلم أرَ أحدا .

- تقصدني أنا ؟

- ومن غيرك يا أسيري .. أقصد يا عبدي .

- ولكن أناح .... ر

- حر في عينك !

- أنا ح ...... ر

- حر هناك .. بين أهلك .. أما هنا فأنتَ غنيمة صيد لا غير ..

- من أنت ؟ .. أتعني .. أنّك قرصان ...

- قرصان (يضحك) أنا .. أنا قرّاص .. قرّاص .. وسترى .

وشعرت لحظتها بمن يقرصني في مكان حساس فصرختُ ألما وخجلا .. وانقبضتْ عليّ الشبكة أكثر بعد أنْ انفرجتْ قليلا أثناء القرص .. الكبير يقهقه ومخاطه ولعابه يتناثران في الأرجاء .. لا يشمئز المريدان بينما أنا لا أكاد أوقف نفسي عن التقيوء ..

- أنا سيدك منذ الآن .. وإلى الأبد .. لا أريد منك شيئا غير الأصفر الرنان أو حتى تراب التبر الأبكم اجلبه من هناك .. هناك حيث أنتم (وأشار ...) .

- أتريدني أنْ أسرقَ أهلي ؟

- أهلي .. أهلك .. لا فرق .. أريدُ الذهبَ حالا من أي مكان .. وبأي طريقة .. وإلا .... وإلا ...

وصرختُ من ركلة دحرجتني حتى صدمتُ الجدار .. اعتلاني عملاق .. وسّع عيونا في الشبكة بخنجره الضخم، شقّ قاطعا في جسدي وحقنني من خلاله بشيء أحسّتْ روحي أنه روح إنسيّة .. فعل ذلك وسط طقوس سحرية غامضة قادها الكبير بمساعدة مريدية الذين لم تتوقف أفواههم عن ترديد تفوهاته .. أخيرا سكب ما تبقى

مـن القطـرات اللـزجة في وقـدة الـنار وقـذف بـالقنيـنة إلى البـئر .. بعـد ذلك لم أشـعرْ إلا والـروح الإنسية قـد اسـتوت علـيّ .. وامتطتـنى قلبا وقالبا .. تحكمتْ في مراكز إرادتـي .. صرتُ إمّعة في يدها .. تـقودنـي أنّى وحيث شـاءت .. أحسستُ أننـي لست أنـا .. ما أريدُ لا يكون .. ومـا يُراد لـي يكـون .. آمنـتُ مـرغما بـالجبر .. بـالقضـاء والـقدر .. بكـل فلسـفات الـركون .. في بيـت الأسـرة تغـيّر مـزاجي .. أرغـبُ في الـبوح وأمـنع .. اكتـنفنـي زمـن مـا قبل العطس .. فمي فـاغر مُتحفز .. فتحتا أنفـي مفتوحـتان بـتوتر .. عيـناي في نصـف إغماضـة .. لاحـظ أهلـي ذلك.. اسـتغربوا بـطء طيرانـي وسـباحتي الأبطأ ومشيتـي المترنحـة .. وتـرددي في اتخـاذ أتفه القـرارات .. ظنـونـي مريضـا .. جرّعونـي تريـاقا كـريها .. تضـايقتْ من مذاقه الـروح ساكنتـي فضـاعفتْ بإيحـاء سُفلي ضـغوطاتها على إرادتـي .. أجبرتـنـي على الابتعـاد عن البيـت والإقـامة في مكـب قمامـة، وهـنـاك داومـت عـلى نغـزي بمهمـاز مُدبـب حـاد .. وعـندما كانـت تجـد المكـبَ نظيفـاً تـأخذنـي إلى خـزان ينضـح لمبولة عمومية، وفي ذلك الجو المشبع بملح البـول تستجوبنى بشراسة وعنـف.

- أين الذهـب .. أين الذهـب ؟

ومـع كـل ركلـة أزداد تكـورا وتأوهـاً .. ومـع كـل نغـزة أصرخ وأنط ألماً .. ورغم كل ذلك العذاب أصررتُ علي ألا أسرق أهلي أبدا .. أبد...

- لا تـريد أنْ تسرق أهلك !

- أجل

- اسرق أهلي إذن ..

- وساقتني إلى ربوع الإنس، الذهب كثير .. كثير .. تنوء بثقله الأرض، لكنه عصي على السرقة .. دونه حديد ونار وعيون محملقة وأقفال .. وعيون أخرى لا تعرف الطرف تحرس من يحرسون !...

عجزتُ عن سرقة أهله أيضا .. عذبني أشد من ذى قبل، وساقني إلى نهر ماؤه يلمع مع ضوء الشمس، ناولني وعاء كقبعة فيتنامية .. غرفتُ من الماء الطامي وأفرغت .. غرفت وأفرغت .. في نهاية اليوم بالكاد تحصلت على بضع ذرات من التراب المجنون والتي لم تقنع الكبير فرماها بعيدا لتذروها الرياح وبإشارة منه طُرحتُ أرضا، وانفرجتْ مسامات الشبكة لتمكنهم من تصليبي وابتعدتْ الروح ساكنتي إلي يباس الظفر، بينما تقاطر جيش من المريدين وكل واحد منهم غرز بين إليتي كسرة من الطين المجمر.. آه .. آه .. آه... صرخت كثيرا مستفزاً جذور حبالي الصوتية .. بعدها أوقفوني ... وأعادت الشبكة تكويري بانكماش مساماتها .

وتركت الروح ساكنتي الظفر لتتبوء سُدة القيادة في طراوة أحاسيسي... صرخ الكبير : لا تعود إليّ بأقل من كيلوين ذهب وكيلوين ماس، لقد أرَقنا لاصطياد هذا اللعين الكثير من الزئبق المخصّب .. في الصفقات الخاسرة لا يجب أنْ نخسر حتى رأس المال...

انطلقتُ مقروحا طائرا، بالطبع، المشي يؤذيني وملح البحر يلهب حروقي، في السماء دخلنا نفقا جدرانه من سحاب، راودت الروح الإنسية ساكنتي أنْ تخبرني قصتها .. قالت في خوف أنا روح جد فقير .. لم أجد عملا أقتات منه، تركت جسدي وطرحتُ روحي في السوق، التقطني الكبير، درّبني بقسوة .. ثم كلفني بأول مهمة .. الدخول فيك ... قبل الدخول حدثني عن ماذا يعني الفشل في عُرف السحرة، أطلعني على علبة بها رماد جثة وعلبة أخرى زعم أن بها روح ذاك الرماد ..

اقترحت على الروح الإنسية ساكنتي الهرب من الكبير .. ذعرتْ حتى تخلخلتْ فانتفضت الشبكة وكدتُ أسقط من عُل، سيطرتُ بمساعدتها على التوازن وهمستْ لي ..

- اصمت إننا مراقبان .. العدسات مغروسة في خيوط الشبكة ...

خرجنا من النفق وارتطمتْ جدران السحاب .. فقدحتْ وزغردتْ ثم .. ثم بكت ..

- إذن ما العمل ؟ والذهب لم نجده بعد ...- نطير .. نطير .. نبحث .. نستمر ...

- إلى متى نطير ؟ إلى متى نبحث ؟ قد يقفل الأفق أبوابه !

- نطير .. نطير .. إلى أنْ يتكلس الفضاء فنتقولب منقوشين داخل صلادته الواسعة ..

وتداخل زمن الفلك .. طرنا من سحاب إلى سحاب .. وأصاب الكرة الأرضية نوع من الوحم فغاصتْ في عوالم الكسوف والخسوف، أظلمتْ الدنيا .. صرنا نطير كالخفافيش .. قالت الروح الإنسية ساكنتي

- قدنا أنت .. سأرخي الشبكة قليلاً .. أنتم تبصرون في الظلام أمّا نحن فلا نبصر إلاّ في الضوء ..

- حاضر.. حاضر..

- قدنا ولا تخن .. جسدي رهينة لديهم .. إياك وأنْ تبعني .. فجأة، إظلام ونور.. نور وإظلام .. تماسات ضوئية ظلامية .. قهقهات مرعبة هستيرية

- خائن .. خائن .. كمين .. سمسار.. بعتني .. حرام عليك !

- لست خائناً .. لم أبعك ..

- إذا ماذا ؟ لقد ضيعتني .. لقد سمعوا اقتراحك .. السحاب ليس شفافاً كما نظن .. مفخخ .. مرصود ..

- لم أخن .. لم أبع .. لم أضيعك .. إنه فصيل الاستطلاع الذي خرج للبحث عني ..

تمّ اقتيادي إلي الحكيم .. تحولت الشبكة إلي شهب متساقطة.. عزلني عن الجمع .. تفحصني عن كثب .. جسّني ببصيرته ثم قال : أما زلت تحنّ لحياتنا أم استهوتك حياة الإنس ؟!

- ما زلت يا مولاي .. ما زلت يا مولاي .. أنا لم أذهب إليهم .. كنت أنساب عبر الأثير

لا أدري ما حدث لي .. فجأة وجدت نفسي أسيراً .. مكبلاً .. مغلولاً .. مصفداً ..

أخذت الروح الإنسية ساكنتي تنفضني لجرأتي .. تعبثُ في مُخيّ كدودة .. صرختُ ألماً .. وقعتُ .. أقعى الحكيم بجانبي .. اقترب أهلي .. مسّح عليّ بوهج مبلل .. ثم تلا العزائم .. صرت أصرخ بغير صوتي .

- لن أخرج .. لو خرجت سأحرق .. جسدي رهينة .. لن أخرج قلت لك ..

واستمر في تلاوة العزائم .. والصراخ يرتفع والارتفاع يتصاعد حتى يتمسّح بسحب أعلى من السحاب المرئي .. والحكيم يرفع صوته بالعزائم .. لم أعد أحتمل ..أغمى عليّ دون أنْ أشمّ أي رائحة نفاذة .. تجمعت أسرتي حول جسدي المسجّى، أبصارها بالكلية متجهة إلى الحكيم .. لم يوقف تمتماته، ونظراته ما فتئت تتمركز على نقطة ما .. التفت فجأة ناحية الأسرة التي بادره كبيرها بلهفة ..

- إن شاء الله خير يا مولاي ..

- ... ابنكم مأنوس

- مأنوس !!

- أجل .. لقد تلبسه إنسي .. مجهول الهوية ..

- يا ساتر .. يا ساتر ..

- قام بالجريمة ساحر طيني، يطلب الذهب من مناجم العلو بعد أن نضّبت المخالب المناجم السفلية ..

- يا ساتر .. يا ساتر من الطمع ..

وأعاد الحكيم نفث عزائمه، واستيقظ الجسد المسجيّ الذي أكونه.. تكورت .. استطلتُ .. تربعتُ .. تقصرتُ .. تكومتُ دون انتظام ثم سحتُ كنقطة سائل كثيف .. بعدها ارتفعتُ كدخان .. وأخيراً انخفضتُ كضباب فجريّ وأطلقت صراخاً مبحوحاً ومتقطعاً ..

- أنت المعتدي .. أخرج بالتى هي أحسن ..

- لا أستطيع .. لا أستطيع ..

- إذن سأحرقك بنص مقدس ..

ونفث بتركيز فارتفع العويل متخذاً أصواتاً كعواء .. كثغاء .. كمواء .. كنعيب .. كا .. كا .. كا ..

- أنت المعتدي .. أخرج .. لم نفتح مارستانات للمأنوسين بعد..

- لا أستطيع .. سيقتلني الكبير .. جسدي مرهون لديه ..

- أنت ظالم .. معتد .. أثيم .. ماذا فعل لك هذا السائح حتى تسكنه وتسّخره عبداً لمشيئتك ..

- لا شيء .. لا شيء .. أنا عبد .. أنا عبد مأمور.

- سأحرقك .. سأحرقك .. آخر علاج هو الكي ..يزداد صراخي .. يتجزأ .. صراخ الروح الإنسية ينفصل لوحده .. فاستريح ..

- سأحرقك .. سأحرقك .. آخر علاج هو الكي ..

- لا تحرقني .. ساعدني .. الحكماء دائماً يساعدون .. حرق الأجساد ولا حرق الأرواح .. أنا في عرضك .. لقد أرخيت قبضتي الآن.. آه .. ابنكم يبتسم الآن .. لا تتركني لهم .. أرجوك .. أرجوك..توقف الحكيم عن تمتماته، بحلق في الأفق .. ثم أطرق قليلاً ورفع قامته اللا مدركة ..

- أتعاهدني إنْ ساعدتك .. رغم أنْ ترابكم مفتت

- أعاهدك .. أعاهدك ..

- إذن سأمنحك البلور الذهبي وفور خروجك من ابننا .. تعطيها للكبير جنب البئر.. لا تنسى جنب البئر..

- لن أنسى جنب البئر.. جنب البئر..

- خذ

والتقفت كرة البلور الذهبية وأخذت أرقص بفعل الروح

الإنسية ساكنتي والتي سمح لها الحكيم بامتطائي ثانية، وتعالت الأغاني .. الخلاص .. الخلاص .. أشكرك يا حكيم .. وداعاً يا عذاب .. وداعاً يا عذاب ..

وأدارت الروح مقودي ناحية مرافئ الأرض بعد أنْ كُوّرت بشبكة وهمية .. كرة ذهبية داخل كرة حية !..

اقتربنا أكثر .. لاحت الخرابة، تتوسطها بئر مُعطلة يغطي الزرب والعوسج فاهها، لا حمام يعشش في شقوق جدرانها .. بقايا أثواب ثعابين منشورة على الشوك، دهن بطون حراشفها يشاكس أشعة الشمس، الكبير واقف جنب البئر، يضع رجله على الحافة ككلب يتبول، كله في حالة تحفز وترقب وقلق .. يخاطب محيطيه باهتمام .. أخيراً لوّح بقبضته وابتسم ..

- وصلت الأمانة .. وصلت الأمانة .. ناولنيها بسرعة يا مريد ؟

- ها هي .. لكن استلامها بشرط .. أنظر فيها أولاً ..

شعّ من الكرة بريق .. أبهر عيني الكبير .. عالجهما بفركة سريعة ..

- خذ ما طلبت وأكثر ..

- أجل .. أجل .. لا يولّد هذا البريق إلاّ التبر الحقيقي .. صيد مثمر .. مثمر .. لا بأس .. لا بأس .. انفصِلا الآن .. عد لأهلك .. وأنت عد لأهلك .. فليذهب كل منكما إلي شأنه .. بلور .. بلور .. ذهب .. ذهب .. ماس .. بلور.

وفجأة أطلّ ثعبان، رأسه ككف موشوم بشامة لامعة، بدأ ينساب بباقي أنبوبه من بين تشابكات الزرب والعوسج .. ارتعب الكبير .. تعثر بنتوء الحافة .. تملصت كرة البلور الملزّجة بلعابه ومخاطه ..

غدّت الانحدار ناحية أعماق الهاوية .. بينما الكبير مستمر في صراخه وسط لعابه ومخاطه المتناثرين .. ذهب .. بلور .. ماس.. ذهب بلور .. ويتتبع انحدار الكرة روحاً وجسداً و خيالاً .. دوي ودخان يتصاعدان من الهاوية، وصرخة كبرى تتبعها صرخات أصغر .. فأصغر ..

كنت أراقب كل المشهد بدقة .. المثير - بالنسبة لي على الأقل - أنّ الروح الإنسية التي كانت ساكنتي سرعان ما ارتدتْ جسدها المغطىّ بالكتّان وعادت تلهثُ إلي مكان الحادث ..

القنبالي

- (المشهد الأول) -

جرّة كبيرة واقفة في منتصف الركح

بجانبها جرة راقدة فمها إلى اليسار

بجانب الجرة الواقفة جرة أخرى راقدة .. فتحتها ناحية اليمين .. الجرتان الراقدتان تكونان في مواجهة وترية للجمهور

وتظهر عيونها التي تخرج الماء ككوّات ملونة .. تكون قواعد الجرّات متصلة ببعض عبر ممرّات معدّة سلفا

وأنصح بان تكون الجرّات من البلاستيك على أن تطلى باللون الطوبي ..

موسيقى هادئة تنساب مع بقبقة ماء ينسكب من الجرّات .. لكن يكون هذا الماء بواسطة تقنية الضوء أى لا يبلل أرض الركح .. وفي لحظة الذروة الموسيقية صوت هطول أمطار وإطلالة السيدة آه

مـن عـنق الجـرّة الواقفـة رافعـة أيديهـا قائلـة بصـوت هـادىء ملائـم لإيقاع الموسيقى :

أنـا السيدة آه .. النسمة الطيبة .. الأم النـافـذة للطهور .. أجدنـي مولـودة هـا هـنـا .. مـن رحـم هذه الجـرّة .. أتـغـذى عـلى صـهـيـر المشاعر .. أتغذى عليك أيتها المرآة .. السماء .. التـي أرى نفسي فيها ..

تخـرج مـن الجـرّة تسـتلقي عـلى ظهـر الجـرة الـنـائمة ناحـيـة اليســار. تقـف علـيها .. تهـم بالقفـز .. تتكـلم بلغـة الوعـيد : ســأقـفز وأتشظى .. سأمزق تلملمي بشفرة من يقين .. سأقفز الآن .. أنـا جرّة .. جرّة طين .. جرّة قلم .. جرّة ماء .. جرّة ريح .. جرّة .. جرّة ..

تقفـز إلى الأرض صحبة موسيقى وصراخ مواصلة كلامها ومع كلامها يبدأ الإظلام التدريجي :

آه .. آه .. قفـزت .. قفـزت إلى فخّـار هابط .. كي لا أرى صورتـي الآن .. كـي أغـنـي بصـراحة مشرقة .. ففـي هـذا الظـلام ثمـة أشـيـاء .. عمـيـاء .. صـمّـاء .. وألسـنة لا تجـيد سـوى الانطفـاء .. سـأغنـي الآن أنشودة الفقاعات ..

تعود صحبة الضوء إلى الجرّة الواقفة تدخل في عنقها وتغنـي :

أنـا فقاعة أنـا فقـاعة .. أنـا نظافة أنـا نصاعة

أنـا قطيرة ندى ترقص .. شاركونـي يـا جماعة

وتنزلق على الجرّة اليمنى تبدأ الرقص صحبة غنائها

على أنْ يكون اللحن بسيطا ليتسنى للجمهور المشاركة في الغناء وتواصل بعد أن يرد الجمهور اللازمة الأولى :

أنا فقاعة .. أنا فقاعة .. أرى حبيبي كل ساعة

حبيبي دفء أراه يشرق .. حبيبي مطر ووداعة

وبعد أن يرد الجمهور أو الكورس اللازمة تنزل من على جرّة اليمين تجلس أمام الجرّة الواقفة تنظر إلى السماء

ثم الأرض ثم تقف تختفي خلف الجرار ليظهر رأسها فقط وتواصل الحوار مع تركها الخلف وتقدمها إلى الأمام و تصاعد انفعالاتها مع كل جملة :

أنا الفقاعة اللزجة كعسل .. أنا نور الحلاوات .. أنا الحارقة .. الراقصة .. الذائبة .. المترنحة .. المتدحرجة .. اقرأوا تدحرجي في امتزاجات التراب .. ستروا على جسدي نفخات ارواحكم .. حقائق أمانيكم .. تاريخكم ..

وماذا لو أفرغتُ الجراب ..

عند هذه الجملة تقفز ناحية الجمهور مع هذه الصرخة (سأنفجر الآن .. الآن ..) ومع سقوط الجرّة الواقفة إلى الأمام أثناء الصرخة سأنفجر الآن يسمع صوت انفجار بمممممممممم .

- (المشهد الثاني) -

الجرار الثلاثة نائمة على الأرض يسمع صوت شخير ثم يسمع أذان ديك وزقزقة عصافير وترى إشراقة شمس تبزغ تدريجيا ومع الشمس تخرج السيدة آه من فم الجرة الوسطى تتمطى وتغسل وجهها من ماء وهمي يسيل من الجرة اليسرى وتشرب من ماء وهمي يسيل من الجرة اليمنى تقف في المنتصف وترفع يديها إلى السماء ثم فجأة تنظر إلى الأرض وتنام وتصير تزحف ببطء تبدأ الحوار قائلة :

أنا فراشة .. لا .. سمكة .. لا .. نملة .. نحلة .. سلحفاة .. عصفورة .. لا .. لا .. أنا إنسان ..

(تقف تمشي أماما خلفا يمينا يسارا تركل الهواء تضرب أشياء وهمية أمامها مرددة):

أنا إنسان .. إنسان .. إنسان .. ولجت هذا الوجود ذات دفقة..

(تتأوه بغنج .. تتأوه بلذة .. تصدر صوت تقيأ .. ترنح .. ثم تصدر صوت بكاء طفل صغير وواواواووا .. وتواصل الحوار) : أنا إنسان .. إنسان .. ولجت هذا الوجود ذات دفقة .. ذات زمن .. أصارع موج الحياة .. أصرعه ويصرعني .. لا هو انتصر ولا أنا .. أنا موجة في بحر ذاتي .. تحركني أهواء المشاعر .. الابتسامات تدفع امتدادي .. تروي به الرمل .. تطفئ جفافه ويباسه .. الابتسامات تنسحب إلى الداخل .. تنسحب بعد أن تقهقه .. ها ها ها ها .. يحتلني العبوس ..

يستنزفني التجهم .. أبرد كثلجة سكون .. لا أجد شمسا .. ولا قمرا .. أجد النار .. فأهرب بشمعتي من رياحها .. الكل يلاحقني .. يرمي ورائي صنارات وشباك وسلاسل .. أجُدُّ الهرب ..

(تظلم الجرار الثلاثة أو تسقط عليها شبكة)

أمتطي قطار الزمن .. أصعد براق الرحيل ..

(تصعد السيدة آه إحدى الجرار تركب عنقها كحصان تقفز فوقَ الجرّة الوسطى تجلس في فمها)

أصل إلى مرفأ ليس به أي شيء صلب .. مرفأ على هيئة شرنقة .. صَدَفة رخوى .. فقاعة .. ابحث عن كوّة لأختبئ .. أرى صورتي على ظهرها .. ابتسم .. تنتر أسناني .. تنكمش الفقاعة التي أمامي .. أنتش بلا تردد .. أممم امم امممممم .. تنفجر الفقاعة .. بم بم بمممممم بم .

(بعد صوت الانفجار تقف تتجول كمن تبحث عن شيء تدخل يدها في فتحات الجرة اليمني فتخرج منه شيئا على هيئة عضو إنسان مثل مجسم فم أو أنف أو رجل أو رأس أو نهد ومع كل جزء يكون حوارا ملائما سأقوله الآن)

أبحث عن أجزاء صورتي في بلل متناثر .. أجد أنفي (تخرج من إحدى ثقوب فم الجرة اليمنى مجسم أنف) أنفي العزيز .. شمني الآن .. اجعلني أعطس القذى .. سأرميك .. أرجم بك هؤلاء .. ربما

بينهم مختنق أو مزكوم .. (وترميه في وسط الجمهور..) وتصرخ : أعطس .. أعطس .. أعطس أيها الإنسان فأنا لم أرمِ لك بأنف بلاستيك .. (وتواصل إدخال يدها في الفتحات تخرج مجسم على هيئة فم يعض بعض الحشائش تنزع منه الحشائش تفركها وتضع منها في أنفها وتستنشق بعمق) وتصرخ رافعة مجسم الفم إلى أعلى تعرضه على الجمهور: فمي .. فمي .. تسقيه قليلا من الماء وتضع على شفتيه روجَ أحمر ثم تخاطب الجمهور) : لا تقلقوا أيها الصُمّاء .. سأرميه لكم .. لكن ممنوع الزحام .. خاصة من الرجال .. أيها الفم سأرميك قربانا إلى هؤلاء .. وأرجوك أن تغني ولا تعض (وترميه على الجمهور) وهنا يعم الصمت ولا تتكلم وتخرج من إحدى فتحات الجرار إصبع به خاتم ودبلة ويأتي صوت غير صوتها أي صوت مسجل سلفا .. صوت متراخ يقول : هذا إصبعي .. بنصري العزيز .. دبلة عرسي وخاتم جدّي .. أحببت وتزوجت لكن لم نتفاهم .. قطعنا سكين الزمن أنا أريده ريحاً تدحرجني وهو يريدني كرة يركلها .. أنا فقاعة .. أنا فقاعة .. أنا نظافة أنا نصاعة .. وهل يعقل أن يركل أيًّا كان النظافة .. إنه الزمن .. لم أرضَ أن أتحول إلى كرة معتمة .. مليئة بهواء الظلمات .. هو لم يفهمني وأنا لم أفهمه .. وكي أتحرر .. اجتمعنا وافترقنا بهدوء .. هو ها هو جالس هناك يتفرج عليَّ وأنا أمنحكم أجزائي .. سأرمي لكم هذا الإصبع .. لكن أخاف أن يقفز عليه ويأخذه منكم .. لا أرغب في أن أعود إليه .. هو لا يحترم الفقاعات الشفافة .. أنا في حيرة .. أريد أن أرميه ولا .. ماذا أفعل .. دعوني أفكر

قليلا .. (تدخل الجرّة الوسطى تضع رأسها على عروتها دقيقة ثم تقف وتواصل الحوار) : قالت لي انزعي من الإصبع الخاتم والدبلة .. أرميهما داخلي وأرمي له الإصبع تنزع من الإصبع الدبلة والخاتم وتهم برمي الإصبع للجمهور لكن تتوقف في آخر لحظة وتقول : لن أرميه الآن .. سأطلب به رقما هاتفيا .. لكن هذا بنصر وليس سبابة أو إبهام.. (وتخرج من الجرّة هاتفا نقالا تضغط بالإصبع على عدة أرقام وتتكلم : ألو .. ألو .. تتمتم : يبدو أنه خارج نطاق التغطية .. تعود إلى الجمهور وفي صمت تركل لهم الإصبع .. وتعود إلى الجرّة .. تخرج نهدا.. ترميه إلى الجمهور في صمت .. تخرج .. قدما .. ذراعا .. أذنا .. ترمي كل شيء للجمهور وتصير تتكوّر على هيئة فقاعة وتصرخ : .. ها أنذا أتكوّر.. منحتكم كل ما وجدت .. نهدي .. ركبتي .. مرفقي .. كتفي .. قدمي .. ليس أمامي إلا أن أتكوّر هكذا .. هكذا بالضبط .. أبحث عن بواقي أجزائي .. أجد كل شيء .. ألملمه .. أرميه لكم علكم تعيدون تركيبه .. دائرة صلبة أمامي .. كل الأجزاء أجدها .. شيء واحد لم أجده .. لا أدري أين ذهب .. لم أجده في الجرار.. ولا فيكم عندما نحوكم قفزت .. شيء واحد لم أجده .. ليس قلبي .. ليس عقلي .. ليس طحالي أو فكري .. ليس أعضائي التناسلية .. إنه سُرّتي .. سُرّتي .. سُرّتي .. سُرّتي يا أمة قهقهت من تفاهاتها الأمم .

- (المشهد الثالث) -

السيدة آه واقفة أمام الركح خلفها الركح مظلم أي لا ترى منه أي ديكور .. أمامها كرة كبيرة أو بالونة كبيرة تتكلم السيدة آه بصوت هادىء وكأنها تقرأ الشعر :

ها هي الفقاعة أمامي .. بها ثقب مموّه .. تدخله رياح الآن والأمس والغد .. كيف أقفلها .. كيف أصيغ حكاياتي بعيدا عن فطرة الجرار .. كيف أكتبني ؟ .. كيف أموت .. كي أحكي .. أحكي فقط يا هوه .. كيف أحكي دونما أحس .. كيف أقتل أشيائي جميعها .. أنحرهويتي على محراب الممكن .. أدمّر عقدة الضعف الإنساني .. هل أشرب خمرا .. هل أدخن حشيشا .. هل أبلع أقراصا تهلوسني .. هل أغرق في لذائذ حسيّة .. هل أتصوّف .. هل أبيع الكسبر و المعدنوس في أزقة ضيقي .. هل أنسى نفسي مثلكم وأتفرّج على مهزلة فنية .. هل أنتحر داخليا وخارجيا .. قل لي .. أنت أيها الملتهم لإصبعي .. أنا آسفة منحتكم إصبع دون خواتم .. أعرف أن معدتك قادرة على هضم المعادن خاصة الذهبية .. لكن أعذرني .. الجرّة أمتصت ذهبي .. وكل شيء .. و أنت يا من منحته أنفي .. منحتك أنفاسي الدافئة في ليالي البرد .. ألم تنعشك أنفاسي عندما تضع أنفي قرب رقبتك ؟.. أم أنك أيها الحمار تضعه في إبطلك .. وأنت أيها الأخرس .. يامن شوى فمي على جمر النفاق .. لقد أكلت شفاهي .. وتركت أسناني عارية للسوس .. لتنخلع هذه الأسنان .. ولا تعضك .. و أنت أيها الطفل

الوديع .. لقد رميت لك منذ حين نهدي .. رضعت لبنه وكبرت .. صرت عملاقا جالسا على كرسي .. تدخن وتزقزق اللب (الزريعة) وتتفحصني بخبث .. أعرف أنك تتفحص فمي ونهدي ووسطي وساقي وذراعي وتتخيّل أن أبيت معك .. أقرأ كل هذه الأشياء فيكم .. لكن لا يهم .. أنا مثلكم لا أنكر ذلك .. أفكر في نفس الشيء .. رغم أنكم لم ترموا لي شيئا حتى ظفرا .. فقط تصفقون بشدة لي وربما يا أوغاد علي .. وتضحكون ببلاهة وتدخلون هذا المسرح مجانا دون دفع ثمن التذاكرأيها اللصوص .. دون دفع مهري مسعدكم ومغذيكم .. ها أنذا ألقي بذور الأسئلة وأجني الأجوبة التي تنبتني أو التي تنبتونها أنتم في مزارع همّي .. ها أنا أصنع مسرحية .. أمثل وفق رؤية مخرج ومؤلف ورقيب .. أمثل بثمن بخس .. حفنة دراهم تذهب سريعا كدخان سحور.. لقد مللت أن ألقَّنُ .. أن توضع لي النقاط على الحروف .. أن تصنع لي جرّة لا تنكسر.. لأنطلق وفق منهج مرسوم بدقة .. اللعنة على الدِّقة .. والدقيق .. أحبُّ الدَّقة .. دَقة القلب .. دَقة الساعة .. دَقة جرس الإفطار وانتهاء الحصَّة المدرسية .

عبر مقود مستحيل لن أعبِّرَ.. أو أعبُرَ.. سأسقط في الجرّة .. في وحل البراز.. في وحل الفكرة المولودة كي تسيطر.. لا .. لا.. لا يمكن يا حبيبي .. أنا لست ممثلة الآن .. أنا إنسان .. يشتهي أنْ يغني .. يرقص .. يضاجع .. يعزف نغما على وتر الحنين .. يركل الزيف والاصطناع .. لن أحكي عن نفسي .. لقد مزقت نصوص نفسي ..

وفرقعت فقاعاتها السيئة والحسنة والساذجة .. سأحكي عنك .. أنت التي مثلي .. أنت أيتها الجالسة في الصف الرابع .. على اليمين العلوي .. خامس كرسي شرقا .. أنت التي تحملقين .. أنت أيتها المثقوبة المرتجفة الخائفة .. المدمرة من الداخل والمهشمة من المحيط .. الأصباغ عاجزة أمام بصيرتي .. ذائبة في بركان ثائر .. أراك بوضوح الوضوح .. أرى حقيبتك المملوءة بالملهاة .. أضحكيني معك .. احكِ لي أمزوحة تفجّر ضحكاتي .. دغدغيني بأمنية متحققة أو بخيبة تمّ تداركها بالهطول .. أم أضحِكك أنا .. حسنا .. سأضحكك أنا .. أو أقول لك .. آه .. آه .. الوقت ليس وقت ضحك .. هو وقت دموع .. بكاء .. نحيب .. صراخ صراخخخخخ .. لماذا لا تبكي معي .. هل أنت من راويات الوسائد .. أم أنك من النازحات .. لماذا لا تبكي معي .. أيعقل أنَّ كيانك كله ملهاة .. ألا مأساة لديك .. لا أخ في سجن .. لا ولد مفقود .. لا حبيب في غياهب الغيب .. لا أناس أوجعوك إذ دمرتهم القنابل .. أو أقبرتهم الزلازل .. أو أغرقتهم الطوافين ... ماذا .. ماذا .. أراك تومئين بإيماءات خجول .. أحكِ .. أحكِ أسمعك الآن .. سأحكي عوضا عنك .. تلبسيني فقط .. أنا لسان حالك الآن .. ليس لديك شيء حزين .. لا سجين .. لا مفقود .. لا ملتهم وجبة للكوارث .. نحن نعيش في عصر السلام .. الوئام .. الجنة .. نحن نعيش عصر النعيم .. لا .. لا .. عصر الفقاقيع .. فقاقيع تطير .. تتمرغ .. تتدحرج .. ترقص .. تلمس بعضها بعض .. لا تنفجر .. تتناسل باللمس .. مواليدها تنسلُّ منها .. كل فقاعة أنثى تطير .. تلامس فقاعة ذكر ..

ينتج من التلاقح فقاعة أصغر .. يورّمها لبن الريح .. تطير هي الأخرى .. تلمس أخرى .. تنتج فقاعة أصغر أخرى .. تمتلئ الجرّة بالفقاقيع .. انظري هؤلاء.. أجل الذين بجانبك .. خلفك .. أمامك .. كلهم خلق .. خلق .. خلق من فقاقيع .. فقاقيع تأكل .. تشرب .. تكح .. ترقص .. تغني .. تمطر من أعلى .. تنبجس من أسفل .. من بين صفوف الكراسي .. مع أشعة الإضاءة .. مع المراوح .. لقد غزتنا الفقاقيع .. من الأجدى أن نستسلم .. نسلّمُ المفاتيح .. نسلمُ الأحلام .. نسلم الكلام .. نسلم الصمت .. ونضيع ...

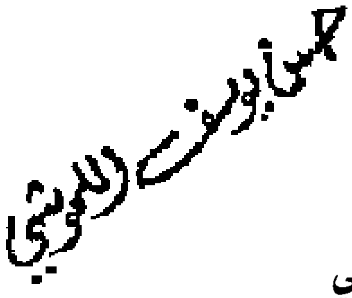
تدخل السيدة آه إلى الركح المظلم وبعد دقيقة تبدأ موسيقى وتضئ الخشبة تدريجيا لنرى الجرار الثلاثة واقفة والسيدة آه تدخل وعلى رأسها جرّة تفرغها منها في الجرة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة .. ثم تنزل إلى الجمهور تمنح من يريد ماءا فيشرب .. تمنح عدة أشخاص في صفوف مختلفة .. تفعل ذلك في صمت مع انسياب موسيقى هادئة تصاحب غناء هادئ أنا فقاعة أنا فقاعة يصاحبها امتلاء الركح بفقاقيع بيضاء أو ملونة تعود السيدة آه ترقص بين الفقاقيع بعد أن تضع جرتها جانبا ومع الرقص يظلم الركح تدريجيا فتتساءل : الضوء .. الضوء .. أدفع بانتظام قسيمة الكهرباء .. وقسيمة الشمس .. وقسيمة القمر .. وقسيمة الماء .. أدفع بانتظام .. بانتظام .. الضوء .. الضوء .. أصطدم الآن بالفقاعات .. الفقاعات تخاف الظلام.. في الظلام لا تتألق .. الضوء .. الضوء .. الضوء .. سأدفع لكم

مجددا .. لكن لا ماء لدي الآن .. أفرغت جرتي فيكم .. سأدفع لكم غناءا .. رقصا .. (تغني وترقص فيزيد الضوء قليلا فتفرح فتواصل الغناء لكن الضوء يعتم من جديد) لم تقبلوا بهذه العملة .. إذا س .. س .. ماذا .. كيف أدفع لكم .. تبدأ الصراخ .. من هذا .. من يلمسني .. يطوقني .. يلتصق بي .. يمزّق فستاني .. أين أصابعي .. أنفي عد لي.. وشاحي لا تغادر.. تصرخ .. تصرخ .. سروالي .. حمالة صدري.. لباسي الداخلي .. لا .. لا .. لا أريد ضوءا .. لا أريد ضوءا .. صراخ .. وصراخ .. وضوء مصاحب موسيقى حزينة يزيد تدريجيا حتى تتضح الرؤية على مشهد الجرار الثلاثة وقد كبلت آذانها إلى بعضها سلاسل أو حبال

وصوت السيدة آه وهي غير مرئية على الركح تتساءل ..: أنا أين .. أنا هنا .. وتطل من فم الجرّة الوسطى .. تتثاءب .. فتسمع صياح ديك وصوت هطول ريح وصوت هطول امطار

فتختفي إلى داخل الجرّة ثم تطل مجددا وفي يدها مظلة وفردة (قنبالي) تلوّح بها مرارا ثم تخرج من الجرّة تخط على الأرضية مربعات (لعبة النقيزة) لعبة الحجلة وتلبس فردة القنبالي وتبدأ الحجل خارج المربعات ثم تستعد لتبدأ اللعب لكن تتفطن لعدم وجود الحجر الذي يلعب به النقيزة فتتوجه حاجلة برجل واحدة للجمهور وتسألهم مبتسمة :

ما عندكمش كسرة جرّة .. أقصد كسرة زليزة ؟



كراسي وأماسي

الشروق الزعفراني الذي يبدأ تاريخي ما عاد يروق لي .. والغروب القرنفلي لا يصلح أن يكون بداية .. والنهاية غارق فيها .. تعودت على تنفسها .. رئتاي سعيدتان بأكسجين المنتهى .. وزفيري بالنسبة للفضاء نسيم نجدة .

أذرع الشوارع بقدمين تعودتا على نُغَص الحُفر والأخاديد .. وبرأس إنس ينظر أمامه وحسب .. أجلس في مقهى لبدة ببنغازي .. مقهى صغير يطل على شارع جمال عبدالناصر مقابل لمصلحة الحرس البلدي .. يرتاده مدمنو قهوة المكياطة وطلبة اللغات والحاسوب وبعض الوافدين من المغرب العربي .. أتابع الأخبار الساخنة والباردة والمكرورة .. أو أي شيء معروض في التلفاز أو مسموع من المذياع .. أرتشف القهوة تلو الأخرى راحلا على براق خيالي أصطاد ما استعصى من كلمات .. أغويها لارتكاب رذيلة الوسم .. الورق كثير.. الأقلام متوفرة برخص التراب .. الندرة الوحيدة أراها في القُرّاء.. القراء كلمات تعيسة تمشي على الأرض .. تنشد النجاة من

مأزقها الرهيب .. تبدأ يومها بشروق بريئ وتنهيه بغروب وقح .. يسكبها في ليل بهيم يجثم على أنفاسها كحاكم مغلوب على أمره عليه أن يبقى كي يعيش.

أجلس متأملا سحب الدخان باحثا فيها عن كليمنتي العزيز. الشخصية التي أحببتها من خلال شعرها الليبي الجميل .. زوجته سارة أينها الآن .. ابنه موسى أينه الآن .. أنا أينني الآن .. الآن جالس في المسرح الشعبي ببنغازي أشاهد مسرحيتي .. الذى أريده كتبته على الورق ودفعت به إلى المخرج وحفظه الممثلون عن ظهر قلب .. الفصل الأول سار على ما يرام .. و كما أريد .. بل أفضل مما أريد .. في الفصل الثاني بدأت (المنيكة) و الخروج عن النص .. من مثل فصلا صار بطلا .. الممثلون تمردوا على كلماتى .. ما يلفظونه غير ما كتبت .. بدأت أنتف شعري وأنبهم بالإشارة .. لكن دونما جدوى والمخرج خلف الستارة لا أراه .. الممثلون مستغرقون في خروجهم والجمهور استحسن ذلك إلا أنا .. وقفت صارخا لاعنا الممثلين والمخرج وإدارة المسرح وحتى الجمهور وسلكت كل الأنظار طريقها إلي .. سعدت بذلك فقد سرقت الأضوء .. الإضاءة الدائرية ركزت عليَّ وأنا أنتقل بين الكراسي أقفز ناحية الخشبة ثم أتراجع وأعود .. ظنونى من ضمن الممثلين الذين يحطمون الحائط الرابع .. أنا حطمت صمتى حطمت رضاي المستكين .. صرت أنط وأصرخ وأقول ليس هذا ما كتبت وبما أننى شخصية عامة و نجم شعبي في الوسط الفنى والأدبي فقد احتار الجمهور من فعلتي تلك .. لكن استحليت

هذا الأمر وهبط على مَلَكَتي إلهام لذيذ لم يمر على الرقابة والآن لن يمنعني كائن من كان .. الممثلون صمتوا والمخرج في الغرفة يعبث مع الممثلة الماجنة التي سيأتي دورها في آخر الفصل الثالث ومدير المسرح في مكتبه يحسب نقود الشباك ويختلس على راحته .. الجمهور الآن في حوزتي وقد سوّلت لي نفسي أن أقوده .. أن أخرج نصي بنفسي .. أشرت للممثلين بالركوع والصمت .. أنا البطل الوحيد .. أتحاور مع الجمهور .. أقلب بصري في وجوههم على مهل .. وجدت فتاة جميلة نص ونص .. وشوشت لها في أذنها أحبك فصفقت رهافة الجمهور وابتسمت الفتاة .. بل أوقفها هدير التصفيق المتواصل فقبّلت جبهتي وأظلم فني الإضاءة الصالة تواطئا معي فقبلتها قبلة ظلامية طويلة وعندما انتشينا .. أضاء الركح من جديد .. آنذاك كنت مبتعدا أهدهد طفلا صغيرا تناولته من ربَّة بيت رشاها زوجها بدعوة حضور المسرحية لتريحه من كلمة تأخرت وأين كنت .. الطفل يبكي وأنا أرقصه وكانت في جيبي صافرة صغيرة صفرت بها مريرات فسكت .. أعطيتها له ومثلت دور طبيب فقلت لأمه : الطفل عنده حرارة أكيد تتركونه طيلة الليل دون غطاء وأنتما تتغطيان جيدا ببطاطين النمر لكن الطفل تغطونه ببطانية أرنب ليكبر على الخوف ولا يرى في النور .. اللى خاف اسْلمْ وانتما شجاعان تتغطيان ببطانية نمر وضحك الزوج وصفق لي وأعطاني كرت عنوانه قائلا :" انكنت اتريد خدمة من شركة الأسمنت فأنا الأسمنت بروحه .. بالعربي انا مدير المبيعات .. بوها وكيّالها " .. حاول الممثلون الوقوف فشخطت فيهم بصرخة " كما كنت " .. وأردفت بخفوت لن أنساكم

يا أعزائي .. من بيته يقطر سددت له ثقوب السقف ومن يريد بناء بيت فالإسمنت موجود ومن يريد تجهيز قبر فالإسمنت موجود ومدير المبيعات صديقي لقد وعدني وها هو كرته وهاهي زوجته شاهدة وها هو طفله الصغير كان يبكي فأسكته بالصافرة .. فقط ابقوا راكعين أيها الممثلون الأعزاء، العرض قد يطول ففي رأسي إلهام طويل سأجرى إلى مؤخرة المسرح حيث لا عائلات .. شباب طوال يدخنون وجريت القهقري ووجدت في آخر كرسي شاب طويل طلبت منه سيجارة فقال لي التبغ مهلكة ونحن نريدك فبيت أمى متقوب وأحتاج إلى حفنة أسمنت أغلق بها ثقوبه قبل حلول الشتاء لذلك لابد أن أحافظ على صحتك فأنت أمر حيوي بالنسبة لي .. وجدت بعده بعدة كراسي شيخ كبير طلبت منه سيجارة فاعطانى مقبص نفة وضعتها في أنفي وصرت أعطس أعطس بتواصل والإضاءة تضيء وتنطفئ مع عطساتي وعندما انهيت نوبة عطسي طلبت من العجوز أن أساعده فقال لي أنا وحيد .. عجوزتي توفيت وأبنائي تنكروا لي و تركونى إلى شؤونهم وأحتاج إلى من يؤنسنى والحقيقة أنّ أم بطلة المسرحية المرتدية رداء ليبي مزركش أعجبتنى .. تخيلتها وهى تعد لي الشاي بعد الغداء وتقول لي تفضل ياسي الحاج وضحك الجمهور وربتُّ على كتفه أعِده بتدبّر أمره وأين ستجد إنسانا طيبا مثلك أقصى أمانيه طاسة شاي بعد الغداء .. لكن يا حاج تريد شاي كيس أم شاي براد؟ قال لي الذي تجيده .. فقط أريده بدون تمثيل .

دخل مشاهدون جدد ووجدوا القاعة مظلمة فقدتهم إلى مقاعدهم بعد أن أخذت منهم هوياتهم قلت لهم في نهاية العرض

تأتون إلى مكتب الأمن المسرحي فأسألكم بعض الأسئلة ومن ثم أعيد لكم أوراقكم وضحك الجمهور كثيرا .. أحد الجمهور كان في الصف الأمامي لم يضحك فتوجهت إليه وطلبت منه هويته وسألته لماذا لم تضحك ألا تعلم أننى هنا في هذا المسرح الكل في الكل .. أنا هو مؤلف النص .. والمخرج الجبان لايجرؤ على الخروج من الغرفة ليعارضنى هو يعرفنى جيدا وأنا أعرف تاريخه في السلب والقرصنة على المسرحيات العالمية ومسرحيات الكتّاب الصغار وربما لو خرج الآن لفضحته أمام الجمهور فالجمهور الآن في قبضتى وإذا لم تعط بطاقتك لهذا الرجل _ وأشرت إلى شاب مفتول العضلات _ فسوف أولّب عليك هؤلاء الرعاع فينتزعونها عنوة .. سأقول لهم إنه بصاص مزروع بينكم والأفضل أن تعطينى بطاقتك ولم أنتظر .. أشرت إلى المفتول فقفز عليه ونتش هويته من جيبه ونتيجة القفزة المفاجئة سقط أرضا من على الكرسي وتدحرج على البلاط جسم معدنى اختفى تحت الكراسي عرفت أين اختفى فزحفت ناحيته .. حيه على أمه .. إنه مسدس رفعته إلى أعلى وقفزت إلى الركح أشهره ناحيته طلبت منه بحزم صعود الركح فصعد مرتجفا رافعا يديه وخلفه الشاب الذي يساعدنى قلت له اركع مع الراكعين وبعد ذلك عدلت عن أمرى له بالركوع فقلت له انبطح وطلبت من الراكعين حراسته وهم في وضع القرفصاء .. توجهت للجمهور قائلا : آه ما رأيكم؟ فصفقوا جميعا والطفل الصغير توقف عن البكاء وصار يصفر بالصافرة نزلت إلى أسفل أتجوّل بين الكراسي طلبت جرعة ماء فأعطانى شاب من الصفوف الخلفية زجاجة رشفت منها إنه خمر

محلي " قرابا " لا بأس حتى يرتفع معدل الإلهام والآن أنا الملك وفي يدى مسدس والجمهور حتى بدون مسدس يستلطفنى ومهيأ لأن يفعل أي شيء من أجلي قلت لهم أريد أن أتزوج .. من تقبلني زوجا لها .. لا أريد السكن في شقة .. سأفرغ سطر كراسي لأجعله سرير نوم والليل قادم والنهار في يدي والزغاريد في حناجركم والتصفيقات في أيديكم والخمر ها هو والشيخ الذي سيقرأ الفاتحة ها هو شيخ النفة والجود من الموجود .. وقفت فتاة من الصف الثانى كانت صامتة خجولة فبادرتها بكلمة موافق وكان خطيبها في جنبها حاول أنْ يعترض إلا أنها صرخت فيه لقد انتظرتك كثيرا .. خمس سنوات وكل خميس انقولوا الآخر .. كل يوم تقول لي غدا وهذا البطل أعجبنى .. سلب لبي .. أعرف أنه سيتزوجنى الآن ولا يقول لي غدا .. أخاف الغد .. ربما لا تشرق الشمس .. ربما أموت وياكل الدود بكارتي .. أريد طفلا أناغيه .. كذلك الطفل الذي يصفر .. أريد أن أعيش حياتى صحبة إنسان أنام جنبه .. يأخذنى إلى المسرح والبحر والغابة والسوق .. أطبخ له الغداء وأعد له القهوة والشاي والكوبتشينوا أيضا .. أخذت الفتاة من يدها وضعتها في كرسي آمن بعيدا عن الأوباش ورجعت لخطيبها همست في أذنه لا تزعل يا صديقي .. الحكاية كلها تمثيل في تمثيل .. ستعود إليك فتاتك .. ستعود إليك بعقلية جديدة .. ستعود إليك امرأة لن تعيدها بعد العرض إلى الشارع الذي خلف بيت أبيها لأنه لن يقبلها .. ستلبس الليلة أيها الغبي ! .. من قال لك أدخل مدينتى .. كلكم ملك يمينى .. حتى الرجال سأتزوج منكم بعقود عرفية.. لأن بينهم من يستحق التبعبيص وفرّغت عيارا

ناريا في السقف فصمت وتسمر في كرسيه ماسكا تكّة سرواله بكل قوته .. ذهبت للفتاة قلت لها لقد تخلى عنك .. أرهبته طلقة مسدس بينما أنا لا ترعبني طلقة ضرطة اريجي شفشوية .. استرحتى منه .. هذا ليس رجلا .. لو كان رجلا ما ماطلك خمس سنوات .. خليك معاي بس .. ستنبسطين .. من تتزوج البطل تكون بطلة .. ودقي يا مزيكا .. لم تدق الموسيقي فأشرت إلى فني الصوت أن يشغل الموسيقى على هواه على مسئوليتى قال لي ليست مدروجة موسيقى الآن عبر هذا الحوار ولا يوجد لديه أشرطة مسجلة وما الحل ؟ طلبت إلى الجمهور أن يغني :

"" الليلة الليلة الليلة .. سهرتنا حلوة الليلة ""

كل الجمهور يغنى وأنا أرقص مع الفتاة بين الجمهور وخطيبها متسمر وعندما رأيت دموعه تتساقط بغزارة تيقنت أنه يحبها فعلا فتوجهنا ناحيته وأوقفته مطمئنا إياه وطلبت منه أنْ يرقص معها وأنا اتفرج عليه .. رقص المسكين وصارا يضحكان والجمهور يصفق وسعيد ومبسوط وفي النهاية عادا إلى مكانهما متشابكي الأيدي .. قلت له بإمكانك أن تغادر إن لم يعجبك العرض لكنه فضل البقاء قائلا لي أريد أن أعرف المصائر وخاصة مصير صاحب المسدس .

في منتصف الصالة جذبتني من ساعدي فتاة ترتدى جلبابا أسود .. همست في أذني أنا لست مخطوبة ربما انديروا أقاري .. مقالبة .. (نتفق) .. قلت لها أوكي .. لكن تمثيل في تمثيل .. أنا لا أتحدث جديّا أبدا .. قالت حتى تمثيل راضية .. نجيلي تمثيل

هالغـزيّل.. قلـت لهـا أخـاف أن يـتحول التمثـيل إلى حقـيقة مثـلما كتابـتى لهـذه المسـرحية الـتي تحولـت إلى حقـيقة وأنـا مـن يقـوم ببطولـتها .. دعيـنا مـن هـذه المواضـيع .. فـالجمهور ملّ مـن حكايـات الرومانسية .. يـريد واقعية قذرة تمس حياته مباشـرة .. إن أردت أنْ تمثلي معي فقفي ربما أجد لك دورا مناسبا .. دعينا الآن نتجول بين الكراسـي .. نفـتش عـن شـيء مـا .. عـن إحسـاس ضـائع أو مخـتفٍ .. نبحـث عن ذواتنا القلقة .. نهديها نفحة وجدانية أو ابتسامة عذبة أو نـور قمر أمتصـه فأشبع .. ها آنذا عدت للرومانسية .. أنـت فتاة غاوية أوقعتينى في شـركك .. لكن لا بأس .. لـن يخسر أي رجل في علاقته مع فـتاة .. فالمـراة دائمـا عـناق فـداء .. لكـن لـن أفـوز علـيك .. لـو فعلـتها سـافقد جمهوري المحبوب هذا .. سأفقد هؤلاء الطيبيين الذين أداروا أبصـارهم عـن عـرض المسرح المصـطنع ووجهـوا مداركهـم نحـوى .. أنـا الـبطل الحقيقي خـالق هـذه المنـاغاة .. مـبدع هـذه الأرواح .. مـبدع هـذه العلاقـة الـتي تقـوم الآن بيننـا .. مـا اسمك أيـتها الفاتـنة الفتّـانة .. لا يهم اسمك مـن أنـت .. أنـت حمامـة نسـت جناحيها في البيـت.. جئتِ إلى هـذه القاعـة بمعـية أخـيك .. أخـوك الآن غـير موجـود .. تـركك في المسـرح وذهـب يبحـث عـن أشـيائه الخاصـة .. سـيعود عـند نهايـة العـرض.. سـتجدين سـيارته أمـام المسـرح .. تركـبين معـه ليعيدك إلى البيـت .. وهـنـاك سـتنتظرين مـتى آتـى لخطبـتك .. ويطـول الانـتظار وأنسـاك وتنسـيني ويدخـل علـى الخـط أنـاس جـدد " وأنسـاهم اللـى نسيوك واشقى بكبر نيران غيرهم " .

والآن نـريد أن نُكْـبِر الـنار في هـذه القاعـة .. أمـامك هـؤلاء الجمهور الذي يحبنـا .. سيشهد الجميع على زواجنـا .. سيسعدوننـا .. سيبنون معنـا سعادتنا طوبة طوبة .. لكن لن أتزوّجك حتى تحلمين معـي .. تعـالي الآن .. وأطفـأ فـنـي الإضـاءة الـنور .. وتعانقـنـا بمحـبة إنسانية .. وحلمنا معا بأن تكون بعوضة .. وكانت فعلا .. وقررت أن أكـون مثـلها .. وبدأت تتراى لـي وهـي جالسـة في المحـراب تـرفع كـل أطـرافها إلى الله، تطلـب أن يحـوّل أحدنـا إلى جـنس الآخـر وجدتهـا خائفـة مترددة في العـودة إلى أنثى إنسـان لا أدري لمـاذا ؟ هـل تخـاف من الختـان المستمر ؟ أم من الوأد فور اكتشاف الأنوثة ؟ وفرت عليها المجهود وقلت لها اطمئنـي لقد أزحت عنك قلقك الثقيل، فضحيت أنـا (بآدميتي) وأجريت العملية المؤلمة، أحسست بأنني أصغر وأصغر وأصغر حتى وجدت نفسي واقفاً قرب حبّة رمـان طازجة، تلمست جسـمي، شعـرت بالغـربة، أيـن سروالي وسترتـي وملابسي الداخلية وساعتـي وخـاتمي وسلسلتـي ؟ وبعد أن زال المخدر، واستعدت وعيي تذكـرت تغيّري إلى جنس البعوض بمحض إرادتـي ولكن كنت حزيناً مـن البشـر لأنهـم سينشـوننـي .. وأنـت سيضـربون بضـعف جناحيك الأمثـال، قبل حقنـي بالمخدر كـانوا قد أخذوا منـي كـل مقتنياتـي .. البطاقة الشخصيـة، جـواز السـفر، رخصـة القـيادة، كتيـب العائلـة، تذكـرة الحافلة .. قـالوا لـي هذه ليست من حقك يا بعوض .. وودعونـي ببسمة فـائحة بالزيف فهمت منها أنهم ينعتونني بفاقد للرجولة ..

لم أعبأ .. طرت في سعادة، مـا أجمل الطيران، أول مرة أشعر أن للطيران لذة، متعة الطيران لا يشعر بهـا الإنسـان أبداً، هنـاك فـرق كبير

بين أقدام تدوس وأجنحة تحلق ! حتى وإن طار الإنسان فلا يطير إنما يطيّر بواسطة ويكون طيرانه محفوفاً بالأخطار.. آه بعوضتي تحليقي في السماء جميل، لم أربط الأحزمة ولم أخف، أصبحت واحداً منكن أيتها المخلوقات الطائرة، كنت منساباً في فاصل من الرقص تدغدغني نسائم الهواء، آه مستحيل وفوق المستحيل أن أعود إلي أصلي الخاطي على التراب ... عندما شبعت تحليقاً اقتربت منك، عانقتك، قبلتك، رقصنا معاً، شاركتنا الفراشات الرقيقة، كنا متهافتين ومستعجلين ومشبوقين أيضاً على إتمام مراسم الزواج ..

زوّجنا (عقد قراننا) صرصور طائر، وشهدت على الزواج إناث العناكب ! وفرقة الرقص من نحل البراري، وامتطينا خفاشاً مسطولا تجول بنا كثيراً عبر الحدائق والبساتين، ولم ينس أن يمر بنا على صيدلية المعرّي لشراء حبوب منع الحمل، بعدها أنزلنا بهدوء على سريرنا الآمن قرب نافذة مفتوحة تجنباً لأي مبيد شفشي ضار..

في الصباح وبعد ليلة الدخلة القارصة والماصة والهارشة والخابشة، ليلة العزاء السعيد ! وبعد أن استنفدت فيها كل ما لديك من دماء مدخرة وبعد أن سكبت فيك كل ما امتصصت من صدمات وهموم، إذ بك تفاجئينني وتنكدين عليّ فرحتي وتحولي ومسخي، اتهمتني بتهمة قد تقوض وتزعزع أسس الثقة التي بيننا، صرخت في وجهي بعد شبعك طبعاً .. أنني لا بكارة لدي، قلت لك أنني فقدتها منذ زمن، وإن كان هذا الأمر يؤثر على علاقة زواجنا (فما زلنا قريب) ولنحضر الصرصور بعد أن ينعنش وإناث العناكب ونُصفّي

الموضوع ودياً وكل منا يعود أدراجه الهابطة في الشقاء ..

الحقيقة يا بعوضتي كنتِ بنت أصل، فهمت الموضوع واحتويت مشاعري هامسة في أذني : أنا لا أقصد يا حبيبي .. ثم غمرتني بقبلة بعوضية .. مزيج من الامتصاص والقرص والعض، كنت أعرف أن هذه القبلة تستخدمها الإناث في أوقات الطوارئ، فنسيت المشكلة، ورميت من عقلي كل العقد والسلاسل والأقفال، رميت بها بعيداً في قمامة لا يرتادها البعوض شعرت بالراحة فما عادت في عقلي الآن أي رواسب جاهلية، والخوف فضت بكارته أنوار التفاهم .. طرنا مع بعض، أيدينا متشابكة، قلوبنا متعانقة، كأننا طفلان نتراقص في غفلة من زمان الوجود .. تذكرت أطفال (فيروز) الذين دارت بهم الدار، طرنا عبر العلو وبدأنا رحلة الوخز والقرص والامتصاص، كنت سعيداً جداً و(آخر فل وتمام) لأنني أقرص الناس وأنا بعوض ولم أقرصهم وأنا إنسان .. كنت أختار الضحية، أنظر إليه من جميع الجوانب، أبحث عن أكثر عضو فيه غرور لأقرصه، كنت أقرص داخل الأنف وأمتص نقطة دم طازجة ! كنت أنتزع بعناية نقط الدم دون أن يلوثها المخاط، وعندما أقرص دائماً أهرب في الوقت المناسب لأجعل أصابعه تذهب في (الفشوش) بعدها أضحك ملء أوداجي، تمتعت كثيراً وإستلذذت أكثر بلعناتهم واتهاماتهم لحماية البيئة بعدم رش الشوارع بالمبيدات، كنت أسمعهم يتحدثون عن الملاريا والكوليرا والسل وأنفلونزا الطيور ويحمّلون الحشرات المسئولية، وأصرخ فيهم بمزيد من القرص أننا معاشر

الحشرات بدأنا نخاف أن نصاب بسبب دمائكم القوّادة الملوثة بالسيدا والحسد والضغينة والشيء الجديد المستفحل الآن، لا أستطيع أن أصفه لكم يا أصلي السابق، إنه مثل تمسح القطط على العتبات ولكن تمسح القطط ناعم ودافئ وشريف بينما تمسحكم خشن وبليد وقذر إلي حد الوقاحة، حتى نحن سنكوّن جهاز حماية بيئة من أجل رشكم بسماد الصدق، هل تصدقون أنني أصبحت أبحث في تاريخ الضحية التي سأقرصها حتى لا أصاب .. !! حياتي البعوضية جميلة ورائعة وراض عنها تمام الرضى لدرجة تمنيت أن يحشرني الله بعوضة، سأتحمل إثم كل القرصات، ولكن هناك وسوسات تأتيني بين الحين والآخر، عندما كان النحل يرقص في زفافنا قلت لنفسي : لماذا لا أتزوج نحلة حتى تكون حياتي كلها عسل في عسل؟ ولكنني تذكرت حيوان البغل المهجّن من الحصان والحمار، خفت من هذا اللقب فتراجعت .. آسف بعوضتي أعرف أنك غيور ولكنني أخذت منك الآمان ضمنيا في بداية سردي لهذه المسوعات ..

بدأت حياتي الجديدة أقرص بشراسة، والذي يكثر رغاؤه أختار له الأوقات الحميمية جداً لأقرصه في موضع لا يتوقعه ولا تصل إليه أصابعه أبداً . أحدهم كان يحمل في يده قنينة مبيد، والأخرى (نشاشة) سعف، وكان بيته مقفلاً من جميع الجهات ويضع على نوافذه القماش الشفاف، فكرت أن أدخل إلي حصنه وهو الذي يتحدى كل البعوض، قلت لا بد من قرصه ولو ضحيت بحياتي البعوضية هذه، اختبأت له في مكان آمن لا يفتحه أبداً أبداً، أين

اختفيت خمنوا ؟ لقد تقرفصت له في محفظة نقوده التي لا باب لها ولا نافذة أيضاً، وبعد أن نام وبدأ شخيره يضج كصرير باب صدئ، تسللت من المحفظة على رؤوس أصابعي وقرصته بكل قوتي الآدمية، قفز عالياً كالممسوس و هرع إلي قنينة المبيد ضخ رشة قصيرة ثم نشها بالنشاشة لتتوزع في أرجاء الغرفة، بينما كنت في تلك الأثناء أعود في إسترخاء إلي المحفظة السجن، خرجت في الصباح .. عندما كان في المخبز يهم بإخراج ربع الدينار بيد مرتعشة لسداد ثمن أرغفة الخبز، في المخبز كان الجو حاراً، فطرت عالياً لتقذفني المروحة الطاردة إلي الهواء الطلق .

لم أضرب بأجنحتي كثيراً سرعان ما وجدتك تعظين الذباب بعدم الوقوف على وجوه الأطفال وتوبخين نحلة شارحة لها عدم جدوى امتصاص أزهار صفراء لم تنضج بعد . خفت أن يطول شرحك ووعظك ونحن في شهر العسل وحويصلاتي ممتلئة إلي "الجمام"، فأخذتك من يدك وعانقتك وقبلتك أمام الذباب والنحل والناس، كان عقلي يفكر بوساوس ما بعد الشبع، كنت أفكر كيف أتخلص منك ؟ وكيف إن تخلصت منك سأفقد بعوضيتي فأنا لا أستطيع العيش دون قرص، ولا أحتمل أن أعود إنساناً مرة أخرى، لا أريد أقداماً أشتري لها جوارب وأحذية ولا جسداً أستره بالكتان، أريد أن أكون هكذا، يكسوني ربي بأعضاء دقيقة لا أخجل منها وجناحين يرفعاني إلي السماء .. آه أحبك يا بعوضتي .. آسف لهذه الوساوس، جسدي بعوضي ولكن نفسي مازال فيها شيء من آدم .

فكرت أيضاً أن أقرص النساء والفتيات ولكن تراجعت .. أعرف أن العفيفات منهن دمهن لذيذ وطاهر ولكن قلت قرصات الحياة لهن تجعل قرصاتي غير ذات معنى .. حلم طويل .. (أطول من ليلة بلا عشاء) سأكمل لك الباقي عندما نصل إلي المستنقع الآسن، الذي سنقضي فيه شهر العسل، سنركب على ورقة توت يابسة تطفو بنا ويجانبنا الطحالب الخضراء، ستحملنا الرياح الهادئة نحو العمق.. حيث السكينة والهدؤ والحب الذي ننشده جميعنا ويؤرّقنا .

والآن مرة أخرى نريد أن نُكْبِر نار الغلاء في هذه القاعة بصورة واقعية .. أمامك هؤلاء الجمهور الذي يحبنا .. سيشهد الجميع على زواجنا .. سيسعدوننا .. سيبنون معنا سعادتنا طوبة طوبة .. سيتبرعون لنا بالمال والحلي .. وهل أطفال الحجارة افضل منا في الرجم .. ارجموا صاحب المسدس بكنادركم وامتلأ الركح بالأحذية اللامعة والمتسخة والممزقة .. نسائية رجالية شبابية .. وكان ذلك التعيس صاحب المسدس قد شَجّت رأسه فردة كندرة طويلة العنق يابسة البوز جاءته من حيث لا يدرى .. وضع أحد الراكعين قبعته على الجرح إلى حين استدعاء الإسعاف . . الجمهور الآن صار حفيانا.. لن يغادر المسرح بتاتا .. طلبت من الراكعين أن يجمعوا كل الأحذية ويخلطونها في برميل صادف وجوده ضمن الديكور.. برميل نفط مكتوب عليه السعر بالدولار الأمريكي .. وعدت إلى ذات الجلباب الأسود قلت لها اخلعي هذا الجلباب وأطفأ فني الإضاءة النور وخلعت جلبابها وعندما أضاءه كانت ترتدي فستانا موردا وعندما قلت لها أمام النساء الحاضرات

هل أنت مصابة بقشرة الرأس يا بعوضتي خلعت وشاحها سريعا ورمته وسقط شعرها مسترسلا جميلا على حواشي رقبتها وكتفيها والآن لابد أن أرقص معك كما في الحلم الماضي .. لا أحب زوجة لا تجيد الرقص .. لكنها المسكينة احمرّ وجهها وتألقت الوشمة الصغيرة التي بين حاجبيها ففهمت ما تريد .. هي لا تريد الرقص في هذا الواقع المسرحي .. تريد أن تحجّل وقلت للجمهور الذي معظمه من البدو المتمدينين هيا حوسوا فيها كشك وعوّا أحد الرجال كذئب وزغردت إحدى العجائز زغرودة نغيمة بينما الفتاة شرعت تحجّل وشتاوة صاح بها متحمّس أمسك بطرف عمامته يلويها في الهواء :

" يا ياس انريدوا غير نفس .. نروقوا كيف الناس وبس "..

وفجأة صمت الجميع .. لا أدرى ما حدث .. لكن وكأن التيار الكهربائي انقطع .. الجمهور يحملق في نقطة ما على الركح .. بالضبط في القماشة التي تغطى جدار الركح المقابل .. ركزت معهم .. ثمة شبه ماسورة طويلة ترفع القماشة ومن ثم ترتد إلى الوراء .. قفزت إلى الركح وفورما أمطتُ الستار مجددا جذبتها .. إنها عصاة مكنسة يعبث بها المخرج ليشرح للممثلة كيفية طعن الممثل المتقمص دور الرجل الشافط للمجاري عندما يحاول مغازلتها بسماجة .. جذبت المخرج إلى داخل الركح وكان مستغربا لتصرفي وصار يلف حول برميل النفط ويخرج منه الأحذية ويعددها ويتعجب ويسأل ما الأمر في صمت فأشير إليه أن يسأل الجمهور وعندما صار مشدوها غمزت إلى اثنين من الممثلين مشيرا إلى حذائه فاوقعوه أرضا ونزعوا

حذاءه وأيضا جوربه ورموهما في البرميل وطلبت منه أن ينزل مع الحفاة أو يركع مع الراكعين فاختار أن يهبط مع الحفاة وهو في قمة الاستغراب وعندما هبط سرعان ما تردد وصعد مجددا منبطحا على أرضية الركح وأعزت للفتاة أن تُحجّل من جديد وأحد الأشخاص أطلق شتاوة جديدة :

" بخت العين رقد من جدّه .. دار فراش ودار مخدّة " ..

وبعد شوط طويل من التصفيق الملهب للأكف شنّيت لها :

" صبي يا سمح التهميتا .. يكفينى فيك التبهيتا .."

فتوقفت وخرجت من الحلقة .

وصفق الجميع وعادت الفتاة إلى كرسيها ارتدت جلبابها .. بدت خفيفة وكأنها أزالت كل أحزان الدهر من فوق كاهلها .. توزع ابتساماتها للحضور واقترب منها شابان تركتها وشأنها معهما .. كانت سعيدة جدا وكنت سعيدا وأنا ابتسم لمرح هذا الصنف من النساء .. ابتعدت فرحا فقد رأيت في الصفوف الأمامية طفلة صغيرة تشير لي بالحضور .. كانت في حضن أمها فاقتربت منها وتناولتها بين ذراعي وضعتها على مقدمة الركح فجرت إلى ناحية البرميل تتلاحق فوهته لا أدرى ماذا تريد لحقتها و وضعتها داخل البرميل ثم رفعتها وفي يدها حذاء صغير هو حذاؤها انتعلته وجرت على الركح تلف حول الراكعين والمنبطحين .. أخذت قبعة صاحب المسدس ورمتها إلى داخل البرميل ثم أعادت حذاءها إلى البرميل وقفزت إلى اسفل الركح تجرى ناحية

والديها وهي تقهقه لا أدرى ما حكاية هذه الطفلة ولا الهدف من وراء فعلتها لكن كان الجمهور يستحسن فعلتها ويصفق .. أذن الطفلة على حق .. شعرت أنني دائخ جدا .. ترنحت وكدت أسقط .. سألت هل من طبيب بين الحضور ؟ لا أحد أجاب .. الحاج العجوز الذي أخذت منه النفة قال لي انعزّمْلك فأنا فقيه متقاعد .. فرفضت .. ازداد دوخاني .. جريت ناحية الفتاة أتأمل عينيها لتظل صورتها تؤنسني في غيبوبتي .. وأنا أكاد اسقط نزلت الطفلة من حضن أمها .. خلعت لي حذائي .. صعدت به الركح وعندما رمته في البرميل بدأ وعيي ينتعش وحالتي تستقر وتركيزي يعود وأصرخ لحفاي المزمن .

غمرني إحساس غريب لم أجربه من قبل قط .. حتى في رحلتي البعوضية .. لم أشعر الآن وسط هذا الحشد أنني مؤلف .. اشعر أنني شيء عادى لا أساوى جناح بعوضة ويا ليتني أساويه فهو يطير على الأقل .. وإذا لاحظ الجمهور حالتي هذه .. صفقوا لي وابتسموا لي فاكتنفتنى نشوة وليدة وقوة لا اشعر أننى أمتلك زمامها .. أعطيت الطفلة المسدس وتنقلت بين الحضور دون خوف .. الكل يرحب بي ويبتسم ويشركني طعامه وماءه وسجائره .. ظهري للركح ووجهي للجمهور .. والطفلة أراها تجري صوب باب جانبي وتختفي .. استغرقت أتأمل هذه الوجوه .. هذه الحياوات التي أشاهدها .. هذه الأحلام التي تستكتبني عنوة .. أجدها تضيف إليّ معان طازجة .. أحاول أن اجعل لها صدى يعود إليها .. لكن دون جدوى .. كان هناك مقعدا خاليا في آخر القاعة .. تهالكت عليه واستغرقت أفكر.

الفهـــــــــرس

محمد مفتاح الطائع الأصفر

- مواليد سوق الخميس الخمس 1960م
- بدأ الكتابة في 2-7-1999م وكانت الانطلاقة من مدينة درنة

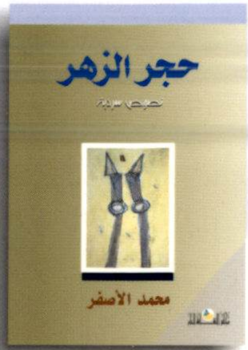
صدر له :

- حجر رشيد، مجموعة قصصية عن منشورات مجلة المؤتمر ليبيا 2003
- المداسة، رواية عن مركز الحضارة العربية القاهرة 2003
- تقودني نجمة ، رواية نشر شخصي القاهرة 2004
- نواح الريق، رواية نشر شخصي القاهرة 2004
- شرمولة، رواية ليبيا للنشر القاهرة 2005
- سرة الكون، رواية دار الانتشار العربي بيروت (تحت الطبع).

mohmadalasfar@yahoo. com

ص ب 32593

بنغازي ليبيا



▪ يقدم مجلس الثقافة العام للقارىء الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًّا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام